

معارك حربية فاصلة
عربية وإسلامية



معركة الارك

٥٩١ هـ / ١١٩٥ م

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - جارية درويش

الدكتور صالح الأشتر

معركة الأراك

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع

القاهرة

معارك حربية فاصلة
عريّة وإسلاميّة

معركة الأرك

٥٩١ هـ / ١١٩٥ م

الدكتور صالح الأشتّر

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - نهاية درويش

سلسلة في عصر حلفائنا تعرض هوذة تحليلية مجيدة
من تاريخنا الطويل بالبطولات ، من الفتره العجمي
التركي والعصر الحديث .

- ١ - معركة الكدث الحمراء ٢ - معركة الزلاقة
- ٣ - معركة حطين ٤ - معركة الارلس
- ٥ - معركة المنصورة ٦ - معركة عين جالوت
- ٧ - معركة فتح القسطنطينية ٨ - معركة وادي المخازن
- ٩ - معركة ميسلون ١٠ - معركة الجبل الأخضر

شارك في تحرير هذه السلسلة

الدكتور صلاح الأشر
والدكتور عمر الدقاق
والأستاذ محمد الانطاكي

وأشرف على إصدارها

الدكتور صلاح الأشر

سلسلة تعلينا أن النصر لا يتحققه إلا القادرون على
الموت في سبيله

تمهيد

استقرَّ الوجودُ العربيُّ الإسلاميُّ في الأندلس ثمانية قرون منذ تمَّ فتحها عام ٩٢ هـ إلى سُقوطِ غرناطة واستسلامِ آخرِ ملوكِ بني الأُخمر فيها عام ٨٩٧ هـ، وخلالَ هذه القُرُونِ الثمانية كان الثَّغَارُ الإسبانيُّ يترقَّبونَ الفُرصةَ السانحةَ لاستردادِ الأندلسِ وطَرْدِ المسلمين القاطنين منها، وقد اتَّخَذَتِ المُقاومةُ النصرانيَّةُ للفتحِ الإسلاميِّ من شمالي الجزيرة الإيبيريَّة وجبالي البيرنه مركزاً لِنَشَاطِطِهَا وَعَمَلِيَّاتِهَا وَغَارَاتِهَا عَلَى الْوِلَايَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلَكِنْ بِقِظَّةِ الْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ وَقُوَّمِهِ كَانَتَا لِلْمَقَاوِمَةِ النَّصْرَانِيَّةِ الشَّامِلَةِ بِالْمُرْصَادِ، إِلَى أَنْ تَمَّ انْهِيَاؤُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ فِي الْأَنْدَلُسِ، وَقَامَ عَلَى أَشْلَاقِهَا عَدَدٌ مِنَ الْإِمَارَاتِ الصَّغِيرَةِ الْمُتَنَافِسَةِ، وَبَدَأَ ضَعْفُ الْمُسْلِمِينَ فِي دَوْلَاتِ مُلُوكِ الطُّوَّائِفِ، فَتَشَجَّعَتِ الْمَقَاوِمَةُ النَّصْرَانِيَّةُ، وَأَصْبَحَتْ تُطَارِدُ الْمُسْلِمِينَ، وَانْتَضَمَتِ قُوَّاتُهَا فِي جِيوشٍ، وَنَشَأَتْ عِدَّةُ مَمَالِكٍ نَصْرَانِيَّةٍ، وَهَدَفُهَا أَنْ تَسْتَوْلِيَ عَلَى أَرْضِي الْمُسْلِمِينَ وَتُخْرِجَهُمْ مِنَ الْأَنْدَلُسِ، وَلَكِنْ الْمُسْلِمِينَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ — رَغْمَ ضَعْفِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ — كَانُوا يَصْنَدُونَ لِلْغَارَاتِ النَّصْرَانِيَّةِ وَيَصْدُونَهَا، ثُمَّ ضَعُفُوا عَنِ التَّصَدِي لَهَا، بَعْدَ أَنْ وَتَبَ

الخلافت والتنافس بين دويلاتهم، وأصبح الوجود العربي مهدداً
بالزوال من شبه الجزيرة كلها! حينذاك يستغيث مسلمو الأندلس
بالمُرابطين المَعَارِبَةِ، ويَهْبُ هؤلاء لِثُغْرَةِ اخوانِهِمْ، وتقعُ معركةُ
الزَّلَاقَةِ عام ٤٧٩ هـ، ويُلقِذُ النصرُ الاسلامي الحاسمُ فيها الوجودَ
العربي والاسلامي في الأندلس، ويُطِيلُ عُمرَ بقائه، ويمنحه القُوَّةَ على
الصمود والاستمرار لمدة تزيد على القرن!

ثم يعودُ النَّصَارَى إلى تهديد الوجود الاسلامي في الأندلس ثانية،
عند اضمحلال قُوَّةِ المرابطين، وعجزِهِمْ عن سحق ثورة المُوَحِّدين في
المغرب عليهم، وتنتهزُ الممالك النصرانيةُ الفُرْصَةَ السَّايِحةَ، فتوالي
غاراتها على الثُلُثِ والحُصُونِ والقلاعِ الاسلاميَّةِ، ومسلمو الأندلس
عاجزون عن الصمود والتصدي لها، وحينذاك يَلْتَهَضُ المُوَحِّدون
المغارِبَةُ لانقاذ اسبانيا الاسلاميَّةِ، وتقعُ معركةُ الأركِ عام ٥٩١ هـ،
ويُحَقِّقُ المُوَحِّدون فيها نصراً حاسماً على مملكة قشتالة، كبرى
الممالك النصرانيَّةِ الإِسبانيَّةِ، وبانتصارِهِمْ في هذه المعركة الفاصلةِ
التي يعلِّقُها المؤرخون اختاً لمعركة الزَّلَاقَةِ، يتمُّ انقاذُ الوجود العربي
والاسلامي، لفترة أخرى طويلة الأمد.

وغايَتنا في هذه الحلقة من سلسلة المَعَارِكِ والبطولاتِ الحربيَّةِ،
العربيَّةِ والاسلاميَّةِ، أن نُقدِّمَ صورةَ لمعركة الأركِ الحاسِمَةِ، نتبَّعُ فيها

أحداثها، ونحلل أهم وقائعها، ونبرز ملامح أبطالها، وفي ذلك درس
لشبابنا، وبعث لأجد أمتنا، وتخليد لبطولاتنا، وإحياء لعزة ماضينا،
وتذكير بما ينبغي أن يكون عليه حاضرنا ..

والله من وراء القصد

الممالك النصرانية في شمالي اسبانيا

على أثر انهيار الدولة الأموية في الأندلس، وقيام دويلات ملوك الطوائف على أنقاضها، ضعفت قوة المسلمين، ووجدت الممالك النصرانية في الشمال الفرصة سانحة للقضاء على الوجود العربي في الأندلس، وانتزاع شبه الجزيرة الأيبيرية كلها من أيدي المسلمين، بعد أن غدوا إمارات صغيرة متنافسة متفرقة، وكان ملك نافارا «سانشو الكبير» — واسمه في المصادر العربية: شانجة — أكبر ملوك النصرانية الطامحين إلى طرد المسلمين من اسبانيا، وكانت مملكته تشمل بلاد الباسك (البشكنس) فيما

وراء جِبَالِ البيرنه، وكانت هذه الجِبَالُ تُولَّفُ
حاجزاً طبيعياً بين الأندلسِ الإسلاميَّةِ وبين بلادِ
الفرنجية وممالكها.

غير أنَّ القَدَرَ لم يُمهِّلْ سانشو ملكَ نافارا لِيُحَقِّقَ
أحلامه، فتوفي عام ٤٢٦ هـ/١٠٣٥ م، واقتسم أولادهُ
الأربعةُ مملكته، ففاز فرويناند ملكُ قشتالة بَعْدَ ضمِّ
مملكة ليون، إثرَ وفاةِ صهره إليه، بأكبرِ نصيبٍ إذْ
أصبحت مملكة (قشتالة وليون) أكبرَ تلك الممالكِ
الشمالِيَّةِ وأقواها، في حين أنَّ إخوته الثلاثة الباقيين
كانوا يَحْكُمُونَ ممالكَ هزيلة لا تعدُّ في مساحتِها
مجتمعةً ثلثَ مملكته: وهي مملكة نافارا في غَرْبِ
البيرنة، ومملكة أرغون، ومملكة سوبراب في أواسطِ
البيرنة! فإذا أضفنا إلى هذه المَمَالِكِ النصرانيَّةِ
الأربع مملكةَ خاميسَّة (إمارة برشلونة أو قطلونية)

الْمُمْتَدَّةَ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمَتَوَسِّطِ، وَالَّتِي
يَحْكُمُهَا رِيمُونْدُ بَرْنَجَارْ، نَجِدُ أَنَّ الْقُوَّةَ النَّصْرَانِيَّةَ الَّتِي
كَانَتْ تَتَرَبَّصُ الدَّوَائِرَ بِمُسْلِمِي الْأَنْدَلُسِ،
لِتَطْرُدَهُمْ مِنْهَا، قَدْ تَفَتَّتَتْ وَحَدَّثَتْهَا، وَتَمَزَّقَ شَمْلُهَا؛
وَبِذَلِكَ أُتِيحَ لاسبانيا الْإِسْلَامِيَّةُ أَنْ تَنْجُو مِنَ الْقَضَاءِ
الْمُبَكَّرِ عَلَيْهَا، فَاسْتَمَرَّ الْوُجُودُ الْعَرَبِيُّ فِي اسبانيا
خَمْسَمِائَةَ عَامٍ أُخْرَى، قَبْلَ أَنْ يَزُولَ أَمَامَ أَعْدَائِهِ،
وَيَتِمَّ إِخْرَاجُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ إِسبانيا كُلِّهَا.

لَقَدْ أَضَاعَ الْأَمْرَاءُ النَّصَارَى، بِتَفْرِيقِهِمْ وَتَبَاغُضِهِمْ
وَتَحَاسُدِهِمْ، الْفُرْصَةَ لِلْقَضَاءِ عَلَى ذَوِي لَاتٍ مَلُوكِ
الطَّوَائِفِ، وَشُغِلُوا عَنْهَا بِالْحُرُوبِ الدَّاخِلِيَّةِ، فَكَانَتْ
الْمَعَارِكُ الدِّمَوِيَّةُ بَيْنَ الْإِخْوَةِ مِنْ أَبْنَاءِ سَانَشُو الْكَبِيرِ
لَا تَنْقَطِعُ، وَتَحَالَفُ بَعْضُ الْإِخْوَةِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ
لِلْإِسْتِيلَاءِ عَلَى مُلْكِ أَخِيهِ، أَمَّا أَقْوَاهُمْ وَهُوَ مَلِكُ

قشتالة وليون، فقد اكتفى بالاستيلاء على عددٍ من
الحُصُون والقلاع الإسلامية المُجاورة، وبفرض
الجزية على مُسلمي طليطلة وسرقسطة بعد حصاره
للمدينتين، ثم انصرف إلى مُحاربة أخيه ملك نافارا حتى
استطاع أن يضمَّ الجزء الأكبر من أراضيه إلى مملكته، فأتسعت
بذلك رقعتها، مما زاد في حشد أخوته الآخرين،
وتوجسهم منه، فاندلعت بينهم الحروب الأهلية،
وانتهت بمصارعهم، وازدياد رُقعة سلطانه!

ولكنَّ المأساة تتكررُ ثانيةً مع أولاده: فقبل
وفاته عام ١٠٦٥هـ/١٠٦٥م قسّم فرونياند مملكته
الواسعة بين أولاده الثلاثة: سانشو وألفونسو
وجارسيا، ولكنَّ ألفونسو يَغْتَالُ أخاه سانشو، ويزجُّ
بأخيه الآخر جارسيا بالسَّجن، حيثُ يظلُّ يرُسَفُ
في أغلاله زهاء ثمانية عشرَ عاماً، ليتمكنَّ (ألفونسو

السادس) من جَمْعِ الممالكِ الثلاثِ تحتِ حُكْمِهِ،
بِالجَرِيمَةِ والخِيَانَةِ والغَدْرِ، ثم يَنْصَرِفُ إلى مُتَاجِرَةِ
الإِمَارَاتِ النصرانيَّةِ الصَّغِيرَةِ الأُخْرَى الَّتِي يَحْكُمُهَا
بَعْضُ أبنَاءِ عُمُومَتِهِ!

وهكذا نَشْهَدُ تَحَوُّلَ الممالكِ النصرانيَّةِ الإسبانيَّةِ
فِي الشَّمالِ إلى مملكتينِ هما مملكةُ قشتالة ومملكةُ
أرغون، عن طريقِ العُنْفِ والإرهابِ والغَدْرِ والحَرْبِ
الأَهْلِيَّةِ، بِالإِضَافَةِ إلى إِمَارَةِ برشلونة الَّتِي كانَ
حَاكِمُهَا ريموندُ برنيجار مُنْصَرِفاً إلى محارِبَةِ جيرانِهِ
المُسلمينَ، وانتزاعِ بَعْضِ أراضِيهِم المُتجاوِرةِ
لِإِمَارَتِهِ.

المرابطون يُنقذون الأندلس في معركة الزَّلَاقَة

كان المسلمون في الأندلس، خلال هذه الفترة المضطربة، يعانون في ظلّ ملوك الطوائف ألواناً من التَّخاصم والتطاحن والصِّراع الداخلي، لا يَقلُّ ظُلُمَتُها واضطرابها عن حال الممالك النصرانية في الشَّمال، ولم تكن تلك الدويلات الإسلامية المتفرقة والمتنافسة، ليتورَّع أحياناً عن التحالف مع بعض الممالك النصرانية لاستمرارِ عونها والفوز بمُؤازرتها، نَظيرَ دفع الجزية إليها. وكان الملوك النصارى يَتَهَيَّزُونَ فُرْصَةً ضَعْفِ تلك الدُّويلات، لِيَسْتُوا الغاراتِ عليها، ففي عام ٤٧٢ هـ/١٠٧٨ م أغار

ألفونسو السادس على طليطلة — وقد كان قبل حين
مُلتجئاً إلى مسلميها من مطاردة أخيه سانشو له،
فاستفاد من معرفته بنوا حي طليطلة خلال فترة نفيه
فيها — للغدر بالمسلمين الذين بذلوا له العون
والحماية أيام محنته، فسقطت المدينة بعد حصارٍ
طويل وحروب لا تنقطع، في عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م
وعادت طليطلة مدينة نصرانية بعد أن حكمها
المسلمون ثلثمائة واثنين وسبعين عاماً، وأصبحت
حاضرةً لمملكة قشتالة، وغدت بذلك عاصمةً
لإسبانيا النصرانية الزاحفة، في وقت كان الصراع
فيه بين إمارتي اشبيلية (بنو عباد) وغرناطة (بنو حمود
من الأدارسة) المسلمتين على أشده، وبسقوط
طليطلة في يد ألفونسو السادس أصبح ملك قشتالة لا
يكتُم نواياه وعزمه على افتتاح الولايات الإسلامية

كلّها في الأندلس، وعندما رَفَضَ أميرُ اشبيلية
المُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ أَنْ يَتَخَلَّى لَهُ عَنْ بَعْضِ الْخُصُونِ
الْباقيةِ في ولايةِ طليطلة أعلن ألفونسو الحربَ عليه،
كما أعلنها على سائرِ أمراءِ الطوائفِ المسلمين
الآخرين، وقد شجّعهُ على ذلك ما رأى من تفرّقهم
وتعاديهم وتخاذلهم وضعفهم، فاستهان بهم جميعاً!
حينذاك ضجّ المسلمون في الأندلس، ورأى كلُّ أميرٍ
في دَوَيْلِيهِ أَنَّهُ مَهْدَدٌ بِمَصِيرِ حَالِكٍ قَرِيبٍ، كمصيرِ
طليطلة، وأمامَ الخطرِ المُشْتَرِكِ الدَّاهِمِ لم يجد
المتفرّقون بُدّاً من أَنْ يَتَّحِدُوا لِرَدِّ الْعَدْوَانِ عَلَيْهِمْ،
ولكنهم وجدوا أَنَّ قَوَاهِمَ مُجْتَمَعَةٍ لَا تَكْفِي لَصُدِّهِ،
فاتفقتْ كُلُّهُمْ على توجيهِ صرخةِ الاستغاثةِ إلى
حُكَّامِ الْمَغْرِبِ (المُرَابِطِينَ) واستدعائهم إلى
الأندلس لِنَجْدَةِ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا..

وهكذا عَبَرَتْ جيوشُ المِرابِطِينَ البَحْرَ، بِقِيَادَةِ

أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ يُوسُفَ بْنِ تَاشْفِينَ عَامَ

٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م لِنُصْرَةِ مُسْلِمِي الْأَنْدَلُسِ، فَاسْرَعَ

أَلْفُونَسُو السَّادِسُ لِلتَّحَالِفِ مَعَ مَلِكِ أَرْغُونِ وَأَمِيرِ

بَرْشَلُونِ، وَوَقَدَتْ عَلَى قَوَاتِهِمُ الْمُتَّحَالِفَةُ سَرَايَا مِنْ

الْفُرْسَانِ، مِنْ وِلَايَاتِ فَرَنْسَا الْجَنُوبِيَّةِ، سَعِيًّا وَرَاءَ

الْمَغَانِمِ الْمُتَنْظَرَةِ، وَإِعْائَةً لِلنَّصَارَى الْأَسْبَانِ،

وَتَلَاقَتْ الْجُمُوعُ الْمُحْتَشِدَةُ الْهَائِلَةُ مِنَ النَّصَارَى

وَالْمُسْلِمِي الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ فِي مَعْرَكَةٍ حَاسِمَةٍ، عِنْدَ

سَهْلِ الزَّلَاقَةِ، قُرْبَ مَدِينَةِ بَطْلِيُوسَ، حَيْثُ قَاتَلَ كُلُّ

مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِاسْتِمَاتَةٍ، وَلَكِنَّ الْمِرَابِطِينَ كَانُوا فِي

ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَصِيبِ أَبْطَالًا مُجَاهِدِينَ، يَتَشَوَّقُونَ إِلَى

الشَّهَادَةِ، وَيَرْغَبُونَ فِي الْمَوْتِ، فَاسْتَطَاعُوا بِشَابَاتِهِمْ

وَصُمُودِهِمْ أَنْ يَحْقُقُوا النَّصْرَ الْحَاسِمَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ قَبْلَ

أَنْ تَغِيْبَ شَمْسُ يَوْمِ الْمَعْرَكَةِ، وَفَرَّ أَلْفُونَسُوا السَّادِسُ
نَاجِيًا بِنَفْسِهِ، عَلَى رَأْسِ كَوْكَبَةٍ مِنْ فَرَسَانِهِ لَا
تَتَجَاوَزُ الْمِائَةَ، هَرَبًا إِلَى طَلِيْطَلَةَ، وَخَلَّفَ وَرَاءَهُ فِي
مِيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ أَلْفَ الْقَتْلَى وَالْجُرْحَى وَالْأَسْرَى، وَقَدْ
تَمَّ سَحْقُ الْجِيُوشِ النَّصْرَانِيَّةِ الْمُتَحَالِفَةِ سَحْقًا كَامِلًا،
وَتَمَّ بِذَلِكَ إِنْقَادُ الْإِسْلَامِ الْمُهْدَّدِ فِي اسْبَانِيَا، وَعَمَّتِ
الْفَرَحَةُ بِالنَّصْرِ الْعَظِيمِ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَغْرِبِ
وَالْأَنْدَلُسِ، وَلَكِنَّ الْمُرَابِطِينَ لَمْ يُحْسِنُوا اسْتِغْلَالَ
نَتَائِجِ انْتِصَارِهِمْ السَّاجِقِ الْحَاسِمِ، لِيَنْهَضُوا إِلَى سَحْقِ
مَمْلَكَةِ أَلْفُونَسُو عَلَى الْأَثَرِ، ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الظُّرُوفِ
جَعَلَتْ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ يُوسُفَ بْنَ تَاشْفِينَ يَتَعَجَّلُ
الْعُودَةَ إِلَى الْمَغْرِبِ، قَبْلَ أَنْ يَضْرِبَ رَأْسَ الْأَفْعَى
ضَرْبَةً قَاضِيَةً! وَلِهَذَا لَمْ يَمِضْ عَامٌ عَلَى مَعْرَكَةِ الزَّلَاقَةِ
حَتَّى انْتَعَشَتِ الْقُوَّاتُ النَّصْرَانِيَّةُ مِنْ جَدِيدٍ، وَرَاحَتْ

تُوَالِي غَارَاتِهَا عَلَى الْمَدَنِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْأَنْدَلُسِ، فَلَمْ
يَجِدِ الْمُرَابِطُونَ عِنْدَ ذَلِكَ بُدًّا مِنْ الْعَوْدَةِ إِلَى اسبَانِيَا،
وَالْقَضَاءِ عَلَى حُكْمِ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ الْمُتَخَاذِلِينَ
الْمُتَنَابِذِينَ فِيهَا، وَوَضَعَ الْأَنْدَلُسِ الْإِسْلَامِيَّةَ تَحْتَ
السِّيَادَةِ الْمُرَابِطِيَّةَ.

لَقَدْ كَانَ الْوُجُودُ الْإِسْلَامِيُّ فِي اسبَانِيَا عَلَى وَشَكِّ
الْإِنْهَارِ، فَجَاءَتْ مَعْرَكَةُ الزَّلَاقَةِ بِتَضَرُّعِهَا الْعَظِيمِ
لِانْقَاذِهِ وَدَعْمِهِ، وَلَمَّا بِالْقُوَّةِ عَلَى الصَّمُودِ، كَمَا جَاءَ
اِنتِصَارُ الْمُرَابِطِينَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَعْرَكَةِ أَقْلِيْشِ عَامِ
٥٠١هـ/١١٠٨م عَلَى جِيُوشِ الْفُونْسُو لِيَكُونَ ذُرْوَةً مَا
بَلَغَهُ سُلْطَانُ الْمُرَابِطِينَ فِي اسبَانِيَا مِنْ قُوَّةٍ، وَقَدْ فَقَدَ
الْفُونْسُو السَّادِسُ مَلِكُ قَشْتَالَةِ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ وَلِيَّ
عَهْدِهِ وَوَلَدَهُ الْوَحِيدَ، فَبَقِيَ عَرْشُهُ فِي طَلِيْطَلَةَ بِلَا
وَرِيْثٍ، مِمَّا جَعَلَ مَمْلَكَتَهُ بَعْدَهُ مَشْرَحًا لِأَحْدَاثِ

كثيرة وحروب أهلية مُدمِّرة، كادت تَغْمُرُ اسبانيا النصرانيَّة بالخراب، خلال السنوات العشرين التي تلت وفاته عام ٥٠٢هـ/١١٠٩م، ولم يَسْتَطِعْ حفيدهُ من ابنته أوراك (ألفونسو ريموندين) إنقاذَ الوَضْعِ إلَّا بعد وفاة أمِّه المغامرة المُسْتَرْجِلَةِ التي كان السلطانُ أعظمَ شهواتِها، والتي أغرقت اسبانيا بالدَّسائِسِ والحروبِ الأهلية، لكي تستبقي زمامَ الحُكْمِ في يديها، إلى أن ماتت فجأةً في عام ١١٢٦م، ولم يستطع ابنُها إصلاح ما أفسدت أمُّه إلَّا بعد بُدْلِ جهودٍ مُضْنِيَّةٍ، حتى تمكَّن أخيراً، بفضلِ ذكائه وتفوّقه على ملوكِ النصارى الآخرين، من توحيد مملكته، وبَسْطِ سُلْطَانِ قشتالة على جميع أراضي اسبانيا النصرانيَّة، وتوجَّ قيصراً عليها عام ١١٣٥م، برضى من أمراء النصرانيَّة وملوكها في أرغون ونافارا والبرتغال وبرشلونة.

الموحدون يستولون على الأندلس

ظَلَّ القيصَرُ ألفونسو ريمونديز طوالَ سَنَوَاتٍ
حُكْمِهِ فِي حُرُوبٍ دَائِمَةٍ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمْ يَكُنْ يَمُرُّ
عَامٌ عَلَيْهِ دُونَ أَنْ يَغْزُوا الْمُسْلِمُونَ أَرْضِي قَشْتَالَةَ، أَوْ
يَغْزُوا النَّصَارَى أَرْضِي الْمُسْلِمِينَ، فِي حُرُوبٍ
تَدْمِيرِيَّةٍ، تَتَسِمُ بِالْعُنْفِ وَالتَّخْرِيبِ وَالتَّهْبِ، وَكَانَ
الْقَيْصَرُ الْمَاكِرُ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ مُحَالِفَةِ الْمُرَابِطِينَ عَلَى
مُسْلِمِي الْأَنْدَلُسِ، وَبَيْنَ مُحَالِفَةِ هَؤُلَاءِ عَلَى
الْمُرَابِطِينَ، لِيَزِيدَ الْأَنْدَلُسَ الْإِسْلَامِيَّةَ فِتْنًا، وَيَحُولَ
دُونَ وَحْدَةِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ وَتَمَاسِكِهِمْ، وَمِنْذَ حَالَتْ ثَوْرَةُ
الْمُوَحِّدِينَ عَلَى الْمُرَابِطِينَ فِي الْمَغْرِبِ دُونَ إِرْسَالِ

الإمدادات إلى الأندلس، بدأت هزائم المسلمين تتوالى أمام الجيوش النصرانية الزاحفة عليهم، واستردّ النصارى كلّ ما كان لهم من تفوّق على المسلمين قبل معركة الزلاقة، وأصبح الوجود الإسلامي في إسبانيا مُهدّداً بالفناء مرّة أخرى، وراحت المدن الإسلامية تسقط بين أيدي النصارى المُحاصرين لها، واحدة بعد أخرى، ففي أواخر عام ٥٤٢هـ/١١٤٧هـ سقطت مدينة ألمرية بين يدي القيصر ألفونسو بعد حصار بري وبحري لها دام ثلاثة أشهر، وبعد أيام من سقوطها سقطت أشبونة (لشبونة) في يد أمير البرتغال ألفونسو هنريكيّز، بعد حصارها من البر والبحر أيضاً، ثم سقطت طرطوشة في يد الكونت ريموند أمير برشلونة، في السنة نفسها، بعد أن عجز ابنُ مردنيش، أمير بلنسية ومُرسية عن الدّفاع عنها أمام مُحاصريها من البر والبحر مدة ستة

أشهر، ثم راح النصارى يُوالون انتزاع المُدُن
والخُصُون من يد ابن مردنيش حتى لم يبقَ له غيرُ
بلنسية!

كانت جيوشُ الموحدين خلالَ هذه الفترة قد
أتمّت فتح مُراكش، والقضاء على المرابطين في
المغرب، وكانت بعضُ جيوشِ الموحدين قد عَبَرَت
في أواخرِ عام ١١٤٠هـ/١١٤٦م البحر، وانتزَعَت
حصنَ الجزيرة من أيدي المرابطين، وجعلت منه
مُنطلقاً لِعَمَلِيَّاتِها الحربية في الأندلس، وبدأ
الأندلسيون ينضمُّون إلى الموحدين في مُدُن جنوبي
الأندلس، وعندما انتهى خليفَةُ الموحدين عبدُ المؤمن
ابنُ عليٍّ من توطيد سُلْطَانِهِ في أفريقية وجَّهَ إلى
الأندلس جيشاً ضخماً وصل إلى قُرْطُبَة، واستولى
عليها عام ١١٤٣هـ/١١٤٨م من المرابطين الذين لم

ينفَعُهُمْ تحالفُهُم مع النصارى القشتاليين لِصَدِّ زحف
الموحدين، كما حاصر غرناطة، ثم استولى على جيان
عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م، وفي أوائل العام التالي حاصر
القيصر ألفونسو قرطبة، ثم رَفَعَ حِصَارَهُ عنها عندما
نُمي إليه أنَّ جيشَ الموحدين بِقيادة خليفَتِهِم عبدِ
المؤمنِ قادمٌ إلى الأندلس، ولكنَّ عبدَ المؤمنِ اكتفى
بتوجيه جيشِهِ بِقيادة الشيخ أبي حفصٍ وولد الخليفة
السيد أبي سعيد، لِتَضْفِيَةِ حُكْمِ المرابطين في
الأندلس، وحماية الولايات الإسلامية من غاراتِ
النصارى عليها، وبذلك تمكَّن الموحدون من
الاستيلاء على الأندلس الإسلامية، واستعادة عددٍ
من المُدن بعد أن كان النصارى قد استولوا عليها،
مثل مدينة المرية التي استردها الموحدون بعد حِصَارٍ
طَوِيلٍ استمرَّ بِضَعَّةِ أَغْوامٍ، وسَقَطَتْ في أيديهم عام
٥٥٢هـ/١١٥٧م وزحفوا على غرناطة واستولوا عليها،

وهرب المرابطون إلى جزيرة ميورقة، ملاذهم الأخير،
وانهار حكمهم في الأندلس، ولم يُجديهم نفعاً
تحالفهم مع القيصر ألفونسو الذي بذل كلَّ جهده
لإنقاذ غرناطة، ولكن زحف الموحدين كان
كاسحاً، ومات القيصر حزناً وغماً عندما بلغته
الأنباء بقتل الموحدين للحامية النصرانية التي كانت
تدافع عن غرناطة إلى جانب المرابطين، وقيل إنه
مات متأثراً بجراحه الكثيرة خلال معاركه مع
الموحدين، وبإستيلاء الموحدين على اشبيلية وقرطبة
وألمرية وغرناطة استعاد الموحدون للإسلام تفوقه في
الأندلس، وبوفاة القيصر ألفونسو عاد الصراع من
جديد بين أمراء النصرانية، من جراء تقسيم المملكة
بين الأولاد، وبذلك تهيأ المجال أمام جيوش
الموحدين لتشييد ضربات ساحقة إلى الممالك
النصرانية التي كانت تحلم بالقضاء العاجل على

الحكم الإسلامي والوجود العربي في اسبانيا: ففي
عام ٥٥٦هـ/١١٦١م غرّ عبد المؤمن خليفة الموحدين
بنفسه إلى الأندلس، ونزل بجبل طارق، وأنشأ به
حصناً عظيماً، وسماه (جبل الفتح) وأقام فيه
شهرين يدرّس أحوال الأندلس، ويستقبل وفود
قوادها وأشياخها، ثم أمر بتوجيه جيوشه إلى غربي
الأندلس، لصد غارات النصارى على الولايات
الإسلامية، كما أمر بإرسال جيش ضخم لمحاربة ابن
مردنيش أمير بلنسية ومرسية، في شرقي الأندلس،
وكان يُحالف بعض ملوك النصرانية، ويستنصر
بقوّاهم على صدّ هجوم الموحدين، ويحاول طردهم
من المدن الأندلسية التي احتلوها، وقد لقي ابن
مردنيش وحلفاؤه النصارى من مملكتي قشتالة
وأرغون هزائم قاصية، أحرز الموحدون فيها انتصارات
باهرة كبدوا فيها أعداءهم أفدح الخسائر!

وكان عبد المؤمن خليفة الموحدين قد عاد إلى المغرب وأمر بالاستعداد العسكري للجهاد في إسبانيا، فتدفقت عليه أمواج المتطوعين والمجاهدين والجنود من أطراف مملكته الواسعة، وأمر بإنشاء الأساطل والاكثار من إغداد السلاح للجيش الضخم التي تجمعت لديه في مدينة سلا، من مختلف القبائل المغربية، وخصوصاً من قبيلة زناتة، وبدأ عند ذاك أن إسبانيا النصرانية ستواجه ضربة قاضية، لولا أن توفي عبد المؤمن فجأة، عام ٥٥٨هـ/١١٦٣م وفقد الإسلام بوفاته قائداً من أعظم قواد العصور الوسطى، بشهادة المؤرخين الغربيين، ورجل دولة من الطراز الأول، استطاع بشجاعته وعزمه وبُعْد نظره أن يقضي على دولة المرابطين ويحقق وحدة الشمال الأفريقي تحت رايته،

ويكون دولة قوية بعد حروب مُظفَّرة، في كلتا
الجهتين الأندلسية والافريقية.

أما اسبانيا النصرانية المتفرقة في خمس ممالك
مُتنافسة، (قشتالة وليون ونافارا وأرغون والبرتغال)
فقد راحت تتصارع وتحارب بعضها بعضاً بأشدّ ممّا
تُحارب المسلمين.

وقد كان من حظّ الممالك النصرانية أن يُسرح
يوسف بن عبد المزمين، الذي بُويع خليفة للموحدين
بعد وفاة أبيه، هلك الجيوش الهائلة المُتجمعة في
سلا، ويُشغل بقضايا المغرب، وجياطة مملكته
الواسعة، ولكنه لم يهمل أمر الأندلس، وقد كانت
له عناية خاصة بها ودراية شاملة بشؤونها، منذ ولّاه
أبوه إمرتها في حياته، وقد جاز خلال حكمه مرتين
إلى الأندلس، أولاها عام ٥٦٧هـ/١١٧٢م في مائة

ألف من العرب والموحدين، واستولى على شرقيّ
الأندلس، وأزال دولة ابن مردنيش، واستسلم
أولادُه للموحدين؛ وثانيتهما عام ٥٧٩هـ/١١٨٤م في
جيش لجب من العرب وقبائل زناتة والمصامدة
ومغراوة وصنهاجة وأصناف البربر، بالاضافة إلى
جيش الموحدين النظامي، وفي هذا الجواز الثاني لقي
يوسف بن عبد المؤمن حثفه في ساحة المعركة، على
أبواب مدينة شنترين عام ٥٨٠هـ/١١٨٤م وبُوع
لأبيه أبي اسحق يعقوب المنصور، وبذلك وصل
حفيد عبد المؤمن، أعظم ملوك الموحدين، إلى
الحكم، وهو بطل معركة الأرك، التي هُزم فيها
ملك قشتالة ألفونسو الثامن حفيد القيصر ألفونسو
السابع هزيمة حاسمة، ذكرت اسبانيا النصرانية
بهزيمتها الكبرى الممائلة في معركة الزلاقة في عهد
المرابطين، قبل أكثر من مائة عام.

السلطان يعقوب المنصور:
شخصيته وتكوينه
يُقيضُ المؤرخون في الثناء على سُلطانِ الموحّدين
يعقوبَ المنصور، وَيَعُدُّونَهُ واسِطَةً عَقِدَ مَلُوكِهِمْ،
وَيَرُونَ أَنَّ دَوْلَتَهُمْ بَلَغَتْ فِي ظِلِّ حُكْمِهِ أَوْجَ عَزَّتِهَا
وَقَوَّتِهَا، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ فِيهِ: «كَانَتْ أَيَّامُهُ زِينَةً
لِلدَّهْرِ وَشَرَفًا لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ».

والحقُّ أَنَّ حَفِيدَ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ لَمْ يَصِلْ إِلَى الْحُكْمِ
إِلَّا بَعْدَ أَنْ اكْتَمَلَ نَضْجُهُ، وَاتَّسَعَتْ خَبْرَتُهُ الْإِدَارِيَّةُ
وَالْعَسْكَرِيَّةُ وَالسِّيَاسِيَّةُ، وَقَدْ نَشَأَ فِي رِعَايَةِ أَبِيهِ، إِذْ
وَلَّاهُ فِي حَيَاتِهِ وَزَارَتَهُ، فَبَدَأَ يَمَارِسُ تَجْرِبَةَ الْحُكْمِ فِي

ظَلَّه، وَيَبْحَثُ فِي أَحْوَالِ الدَّوْلَةِ وَالرَّعِيَّةِ بَحْثًا شَافِيًا،
وَيُطَالِعُ مَقَاصِدَ الْعُمَّالِ وَالْوُلاَةِ، فَأَكْسَبَتْهُ دِرَاسَتُهُ
لِجَزْئِيَّاتِ الْأُمُورِ خِبْرَةً وَاسِعَةً جَعَلَتْ أَشْيَاخَ الْمُوَحِّدِينَ
يُجْمَعُونَ عَلَى تَقْدِيمِهِ وَمُبَايَعَتِهِ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ، وَكَانَ
يَعْقُوبُ الْمَنْصُورُ مَعَ أَبِيهِ فِي الْمَعْرَكَةِ الَّتِي جُرِحَ فِيهَا،
عَلَى أَبْوَابِ مَدِينَةِ شَنْتَرِينَ، فَلَمَّا أَصِيبَ أَبُوهُ، رَجَعَ
بِالنَّاسِ إِلَى أَشْبِيلِيَّةَ، وَاسْتَكْمَلَ الْبَيْعَةَ لَهُ، وَقِيلَ إِنَّهُ
أَخْفَى نَبَأَ وَفَاةِ أَبِيهِ، حَتَّى عَادَ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَتَمَّتْ
الْبَيْعَةُ لَهُ فِي مَرَّاكَشَ، عَاصِمَةُ الدَّوْلَةِ الْمُوَحِّدِيَّةِ فِي
جِهَادِ الْأُولَى ٥٨٠هـ/أَيْلُول ١١٨٤م، وَقَدْ بَرَزَتْ
مَوَاهِبُهُ فِي قِيَادَةِ الدَّوْلَةِ مِنْذُ تَسْلِيمِ أَمْرِهَا، فَعَمَدَ إِلَى
اِكْتِسَابِ حُبَّةِ شَعْبِهِ، بِتَوْزِيْعِ الْأَمْوَالِ الْكَثِيرَةِ عَلَى
الْفُقَرَاءِ، وَإِطْلَاقِ سَرَاكِ الْمَشْجُونِينَ، وَإِسْقَاطِ بَعْضِ
الْمَكُوسِ وَالضَّرَائِبِ، وَرَفْعِ الْمُرْتَبَاتِ، وَزِيَادَةِ أَجُورِ

الجُندِ، ثم قام بنفسِه بجولةٍ في أنحاء المَمْلَكَةِ
الشَّاسِعَةِ، لِيَتَفَقَّدَ أحوالَ رعيَّتِه، ويطمئنَّ إلى تَتْفِيذِ
وُلايَتِه لأوامرِه وتوجيهاتِه.

وأنصَرَفَ المنصورُ سُلطانُ الموحدين إلى العِنايةِ
بجيشِه وتدريبِه وتسليحِه، والسَّهرِ على تَحْصِينِ حدودِ
مملكَتِه، وحشدِ خيرةِ الجُندِ في الحُصُونِ والقلاعِ،
حتى أتمَّ تدبيرَ الأمورِ في كلِّ جهةٍ من أطرافِ دولتِه
العظيمةِ.

وكانتْ شخصيَّةُ المنصورِ تتسمُ بالخزمِ والإقدامِ،
والورعِ والتدينِ، والاكثارِ من فعلِ الخيرِ، والمؤرخون
الغربيون يُشاركون المؤرخين العربَ في تعدادِ مَزاياهُ،
وتمجيدِ انجازاتِه، فابنُ خلكان يقولُ عنه :

« قامَ بالأمرِ أحسنَ قيامٍ، وهو الذي أظهرَ أبهةَ
مُلكِ الموحدين، ورفَعَ رايةَ الجِهَادِ، ونَصَبَ ميزانَ

العدل، وبَسَطَ أَحْكَامَ النَّاسِ عَلَى حَقِيقَةِ الشَّرْعِ
وَنَظَرَ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالْوَرَعِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ
عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَقَامَ الْحُدُودَ حَتَّى فِي أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ
الْأَقْرَبِينَ، كَمَا أَقَامَهَا فِي سَائِرِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ
فَاسْتَقَامَتِ الْأَحْوَالُ فِي أَيَّامِهِ، وَعَظُمَتِ الْفَتْوحَاتُ .

والمؤرخُ الألمانِيُّ أشباخُ يقولُ عنه :
«نَفَّذَ الْمَنْصُورُ عِدَّةَ مَشَارِيعَ خَيْرِيَّةٍ : فَأَنْشَأَ كَثِيرًا
مِنَ الْمَسَاجِدِ وَالْمَدَارِسِ ، وَأَنْشَأَ الْمَسْتَشْفِيَّاتِ لِلْمَرْضَى
وَرَصَدَ لَهَا أَمْوَالًا لِلنَّفَقَةِ ، وَفَتَحَهَا أَيْضًا لِإِيْوَاءِ الْعَجْزِ
وَالْعُمَى ، يَوْثُمُونَهَا مِنْ جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْمَمْلَكَةِ ، وَغَنَى
بِتَسْهِيلِ الْمَوَاصِلَاتِ وَالسَّفَرِ ، فَأَنْشَأَ فِي الطَّرِيقِ
الرَّئِيسِيَّةِ وَطَرِيقِ الْقَوَافِلِ أَبْرَاجًا ، وَأَحْوَاضًا لِحَزْنِ الْمَاءِ ،
وَأَبَارًا لِلِاسْتِسْقَاءِ ، وَفَنَادِقَ لِتَرْوِيلِ الْمَسَافِرِينَ ، كَذَلِكَ
كَانَ الْمَنْصُورُ صَدِيقًا وَنَصِيرًا لِلْعُلَمَاءِ ، وَقَدْ أَنْشَأَ لَهُمْ

المعاهدة.. وأجرى عليهم الأرزاق إلخ..» ويظهر
حزم المنصور في قضائه على الفتن الداخلية التي
واجهته في السنوات الأولى من حكمه، حتى إنه
عندما بلغه تأمر أعمه السيد أبي الربيع، وأخيه
السيد أبي حفص، على الخلافة، أمر باعتقالها
ومحاكمتها، وقتلها دون رحمة، ليقطع دابر الفتن،
ويستأصل شأفة الطامعين، إلى أن تم له توطيد
الأمن والاستقرار في مملكته المغربية الممتدة من
البحر المحيط إلى برقة.

ولم يُهمل المنصور شؤون الجهاد ضد النصارى
في إسبانيا، وبعده توطيد الاستقرار في المغرب عبر إلى
الأندلس بجيشه، وسار إلى شنترين وأشبونة
(لشبونة) لكي ينتقم لهزيمة والده ومقتله، فشن
الغارات على غربي الأندلس، وعاث أثناء سيره في

المُروِج، وأُحرق القرى ونَهَب الضياع، وقَتَلَ
السَّكَّانَ، وبلغ في النكاية أبعدَ الحدود، وانصرف
بثلاثة عَشَرَ ألفاً من السبي، والغنائم العظيمة،
ورَجَعَ إلى فاس في العامِ نَفْسِهِ (٥٨٥هـ/١١٨٩م).

وعَمَّتْ شهرةُ يعقوبَ المنصور أرجاء العالم
الإسلامي، وتناقل المسلمون في كلِّ مكان أنباء
انتصاراتِهِ وقوة جيشِهِ وأساطيله، ويتَّخِذُ ابنُ
خلدون من طَلَبِ السلطانِ صلاح الدين الأيوبيَّ
الاستنصارَ بأسطولِ الموحدين عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م
على أساطيل الصليبيين المُحاصِرة لِثُغُور الشَّام، دليلاً
على تقدُّمِ قُوَّاتِ الموحدين البحرية وشِدَّةِ عنايتهم
بأساطيل الجِهَاد، وتفوقِهِم فيها على قُوَّاتِ الدولِ
الإسلامية في مصر والشَّام لذلك العهد.

تلك هي شخصيَّةُ سلطانِ الموحدين يعقوبَ

المنصور، بَطَلِ معركة الأرك، فلننتقلُ منها إلى
تقديم صورة خصميه ملك قشتالة ألفونسو الثامن،
قبل أن نتابع حكاية الأحداث التي جرت بينهما،
والتي أفضتُ بها إلى خَوْضِ تلك المعركة الفاصلة.

ألفونسو الثامن ملك قشتالة يتحدى المنصور

عندما تَوَلَّى ألفونسو الثامن، حفيد القيصر ألفونسو ريمونديز، عَرْشَ قشتالة بعد وفاة أبيه سانشو الثالث، كان فتى قاصراً، تتنازع الوصاية عليه في قشتالة أسرتان عريقتان في الشراء والقوة، هما آل كاسترو وآل لارا، وقد جرّ تنازع هاتين الأسرتين الأرستقراطيتين على مملكة قشتالة حرباً أهليّة كانت وبالاً عليها، فلما تغلبت إحدى الأسرتين (آل لارا) على الأخرى (آل كاسترو) قرّ هؤلاء إلى أراضي المسلمين، ليُدبّروا وسائل الانتقام من أعدائهم، ويحرّضوا الموحدين على غزو مملكة قشتالة!

وعندما بَلَغَ الفتى القاصِرُ ألفونسو الثامن سنَّ
الرشد، عام ١١٦٩م حاول أن يُصلَحَ أمورَ مملكته،
وعقد معاهدةَ سلامٍ مع مملكةِ نافارا، وهادن مملكةَ
أرغون، لِيَتَصَرَّفَ إلى قِتَالِ المسلمين، وقد كانت
مملكةُ قشتالة أكثرَ الممالك النصرانيةِ تعرُّضاً لِعُزْوِهِم،
وقد ازداد الخطرُ الإسلاميُّ على قشتالة بعد قضاء
المُوحِّدين على حُكْمِ ابنِ مردنيش في بلنسية
ومرسية، واستسلم أولاده لهم كما قدّمنا، فأصبحت
قُوَّاتُ الموحدين تُثَبِّخُ في أراضي الدولِ النصرانيةِ،
في غاراتٍ مُستمرّةٍ، وحروبٍ لا تكادُ تنقطعُ، في حين
أنَّ ملوكَ تلكِ الدولِ الخمسِ كانوا يتنازعون دائماً
على حقِّ كلِّ منهم في فتح ما يلي أراضي مملكته من
أراضي المسلمين، وتفاقمَ بينهمُ التَّزَاغُ، حتى كادت
ممالكهم تغدو هي نفسها عُرضَةً لاستيلاء المسلمين

عليها، وجرحهم التنازع فيما بينهم على أن يتحالف بعضهم على بعض، وفي عام ١١٩٠م عقد ملك أرغون حلفاً مع ألد أعدائه، ملك نافارا، ضد ملك قشتالة ألفونسو الثامن أخلص حلفائه، وانضم إلى الحلف الشنائي ملكا ليون والبرتغال في العام التالي ١١٩١م، ليصبح الحلف الرباعي خطراً حقيقياً على مملكة قشتالة، وهي تواجه تهديد الموحدين الدائم لها، وكان ألفونسو الثامن ملك قشتالة قد عمّد إلى مُهادنة الموحدين، وعقّد مع يعقوب المنصور صلحاً لمدة خمس سنوات، ليتمكن من مواجهة الممالك النصرانية الأربع المتحالفة عليه، ويُفرّق شملها، ويبدو أنه قد تغلب عليها قبل أن تنقضي سنوات الصلح الخمس مع الموحدين، فأنفرت عقد الحلفاء، وأثار الخصام بعد الحلف بينهم منازعات جديدة لا تنتهي! وانتهر ملك قشتالة الفرصة للإغارة على بلاد

المسلمين، بجيشٍ كثيفٍ، فنَهَبَ وسبى، وعاثَ في
أرضِ المسلمين عَثْياً فظيعاً، وانتهى الخبرُ إلى سُلْطانِ
الموحدين بذلك، وهو في عاصمَتِهِ بمراكش، في أواخرِ
عام ٥٩٠هـ/١١٩٤م، فعَزَمَ على التوجُّهِ إلى
الأندلس، واتَّجَعَه إلى مدينةِ سلا، وكتب إلى القُوَّادِ
وؤَلَاةِ الأَطْرَافِ، لِيُوافوه إليها بالجُيُوشِ وجُمُوعِ
المُجَاهِدِينَ، وَاتَّفَقَ أَنْ مَرِضَ المنصورُ مرضاً شديداً،
وَأَلَحَّتِ العِلَّةُ عليه حتى يَشَ منه أطباؤُهُ، فتوقف
سيرُ الجيوشِ، وَحُمِلَ السلطانُ المريضُ إلى مُراكش،
واقْتَضَى الحالُ تَفْرِقَةَ الجيوشِ المتجمِّعةِ في سلا،
واستفادَ ملكُ قشتالة من حَرَجِ المَوْقِفِ، وَازْدَادَ
طَمَعُهُ في الحصولِ على بعضِ الحُصُونِ المُتَاخِمةِ
لمملكَتِهِ، بالتهديدِ والوَعِيدِ، وَزَيَّنَ له سوءَ حظِّهِ أَنْ
يتحدَّى سُلْطانَ المُوَحِّدِينَ، يعقوبَ المنصورَ،

وَيَسْتَثِيرُهُ لِلْحَرْبِ، بِشَنْ غَارَاتٍ تدميرية على
أراضي المسلمين، تُنْسَفُ فيها الغلات والكروم،
وتُقَطَّعُ أشجارُ الزيتون، وتُخَرَّبُ الضياع والقرى،
وتُسَاقُ الماشية، ويُسبى المستسلمون رجالاً ونساءً،
ويُذَبِّحُ المقاتلون المسلمون منهم ذبجاً...

ولم يكتفِ الفونسو الثامن بما أصابته تلك
الغارات، من تخريب وتدمير ونهب، وما عاد به
قائدها المطران المتعصب المتعطش لدماء المسلمين،
مارتن مطران طليطلة، من غنائم عظيمة وأسلابٍ
وفيرة، فأرَادَ الملكُ القشتاليُّ أن يزيده في تحديه،
فكتبَ إلى يعقوب المنصور كتاباً يدعوهُ إلى القتالِ،
هذا نصه:

«من مَلِكِ النُصْرَانِيَّةِ إِلَى أَمِيرِ الْحَنِيفِيَّةِ أَمَا بَعْدُ،
فَإِنْ كُنْتَ عَجِزْتَ عَنِ الْحَرَكَةِ إِلَيْنَا، وَتَشَاوَلْتَ عَنِ

الوصول والوفود علينا، فوجه لي المراكب والسفن
أجوز فيها بجيوشي إليك، حتى أقاتلك في أعز البلاد
عليك، فإن هزمتني فهديت جأءك إلى يدك، فتكون
ملك الدينين، وإن كان النصر لي كنت ملك
الملتين، والسلام» فلما قرأ المنصور الكتاب اشتد
غضبه، ومزق الخطاب، ورد على غطسة ملك
قشتالة بكلمات قليلة: (الجواب ماترى لا ما تسمع).
وأمر بالاستتغار للجهاد، واستدعاء الجيوش من
الأمصار، كما أمر أن يُزاع فحوى كتاب ملك
النصارى على الجنيد والمجاهدين، لیسمعوا تحديته
للمسلمين، ويطلّعوا على ما فيه من استخفاف
واستهانة بهم، لاستشارة غيرهم، وتحريضهم على
الانتقام لكرامتهم!

وهكذا دوت صيحة الجهاد في جميع أنحاء

المغرب، من مدينة سلا حتى برقة، فهَيَّجَتِ النفوسَ
للحرب، وتدفقت أمواجُ المُتطوِّعين من المُجاهدين،
من القبائل العربية والبربرية، وقد أثار تحدي ملك
قشتالة وغطرسه غيَرتَهُمُ الاسلاميّة، وأهاجَ عزيمَتَهُم
لانتقامِ العاجِلِ القريبِ.

المنصور يدعو إلى الجهاد ويتأهب له

يذكر بعض المؤرخين أنَّ جوابَ المنصورِ على
تحدي ألفونسو الثامن له هو الآية الكريمة:

«ارجع إليهم فلنأتيتهم بجنودٍ لا قِبَلَ لهم بها،
ولنخرجنَّهم منها أذلةً وهم صاغرون!» وأنصرفَ
المنصورُ بعد توجيهِ هذا الردِّ إلى ملكِ قشتالة، إلى
التأهبِّ لمعركةِ الجهادِ الكبرى القادمة، ونادى
المنادون في جميع أطرافِ المملكةِ بالدَّعوةِ العامَّةِ إلى
الجهادِ، فهُرِّعَ الرِّجالُ والشُّبابُ والشُّيوخُ، وسُكَّانُ
الهضابِ والصَّحارى والشواطىءِ في جميع أنحاء

البلاد المغربية التي يَحْكُمُهَا الموحِّدون، إلى
الانضمام إلى جُمُوع المُجَاهِدِينَ، وتدفقت كَتَائِبُ
الجُيُوشِ النظامِيَّةِ على مراكش، وقد عَشَكَرَ السُّلْطَانُ
في ظَاهِرِهَا، فَضُرِبَتِ السُّرَادِقَاتُ الكَبِيرَةُ، وَنُصِبَتِ
الخِيْمَةُ الحَمْرَاءُ الكَبْرَى، وَتَقَلَّدَ المَنْصُورُ سَيْفَهُ الكَبِيرَ،
وَعَصَّتِ الأَرْضُ بِالجُمُوعِ الزَّاحِرَةِ مِنَ الجُنْدِ
وَالْمُتَطَوِّعِينَ، بِأَسْلِحَتِهِمْ وَآلَاتِهِمْ، وَأَمْتَعَتْهُمْ وَدَوَابَّهُمْ،
فَلَمْ يَجِدِ المَنْصُورُ بُدًّا مِنَ الأَمْرِ بِالتَّحَرُّكِ نَحْوَ الشَّامَالِ،
وَالْعَسَاكِرُ لَا يَنْقَطِعُ وَصُولُ كَتَائِبِهِمْ عَلَى مُعَشَكَرِ
السُّلْطَانِ، مِنْ سَائِرِ الأَقْطَارِ، فَبَدَأَتْ طَلَائِعُ الجُيُوشِ
تُغَادِرُ أَحْوَازَ مراكش مَعَ المَنْصُورِ الَّذِي غَادَرَ عَاصِمَةَ
مُلْكِهِ فِي الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ جُمَادَى الأُولَى ٥٩١ هـ
وَالْكَتَائِبُ يَتَوَالَى وَصُولُهَا، وَتَلْحَقُ بِجُيُوشِ السُّلْطَانِ
بِمُشَاتِهَا وَفَرَسَانِهَا، وَقَدْ اخْتَارَ المَنْصُورُ أَنْ يَعْبَرَ بِجُيُوشِهِ
الْجَزَّارَةَ إِلَى الأَنْدَلُسِ مِنْ مِينَاءِ قَصْرِ المَجَازِ، وَقَدْ

أشرف السلطان نفسه على إجازة الجيوش الواردة عليه، لا يفرغ من إجازة طائفة إلا وقد لَحِقَتْ بها أخرى على أثرها، فأجاز أولاً قبائل العرب ثم زناتة، ثم المصامدة، ثم غُمارة، ثم المتطوّعة من قبائل المغرب، ثم الأغزاز والرّماة، ثم عبر الموحّدون ثم العبيد، ثم عبر السلطان في موكبٍ عظيم من أشياخ الموحّدين وأهل النجدة والزعامة، ومعه عددٌ كبيرٌ من فقهاء المغرب وصلحائه، ونزل الموكب السلطاني في ميناء الجزيرة الخضراء، في العشرين من رجب ٥٩١هـ، ولم يسترخ في المدينة غير يومٍ واحدٍ، متعجلاً السير بالجيوش الزاحفة إلى قشتالة، رغبةً في استغلال حماسة الجُنْدِ وظمأ المجاهدين إلى القتال، قبل أن تتراخى عزائمهم، ويدركهم التعب فتضعف حميتهم، ويُشير المؤرخ الألمانيُّ أشباخ إلى

عاملٍ ثانٍ كان يدفعُ المنصورَ إلى تعجُّلِ السيرِ نحو
خصمه، وهو خشيتُهُ من نفاذِ المؤن، قبل أن يوجَّهَ
الضربةَ الساحقةَ إلى عدوِّه، ويستولي على قُراه
وضياعه، لينتفعَ بما فيها من مِيرةٍ يضمُّها إلى مؤنِ
جيوشِهِ الجِـرارةِ الزاحفةِ التي تُقدَّرُ بستِـماتِـة ألفِ
مقاتلٍ.

والحقُّ أنَّ المنصورَ لم يتأهَّبَ للجِـهَادِ هذا التأهَّبِ
العظيمِ، ولم يستعدَّ لملاقاةِ خصمه الذي تحدَّاه هذا
الاستعدادَ الكبيرَ، إلَّا وفي نيَّته أن يضعَ حدًّا لتهديدِ
الممالكِ النصرانيةِ للأندلسِ الاسلاميَّةِ، بتوجيهِ
ضربةٍ ما حِقَّةٍ تسحقُ قوى تلكِ الممالكِ، وتقضي
عليها، وكانتْ خطَّةُ المنصورِ ترمي أولاً إلى اختراقِ
قلبِ اسبانيا وافتتاحِ طليطلة، عاصمةِ قشتالة، ومتى
أنجزَ ذلك، وقضى على مملكةِ قشتالة، كبرى الممالكِ

النصرانيّة، أمكنّه أن يولّي وجهه شطر الممالك
الأخرى، ليَقْضِيَ عليها بسرعة وسهولة!
وهكذا اتجهت جيوش الموحّدين بقيادة المنصور
نحو عاصمة قشتالة. ولكنّ الأخبار جاءت بأنّ الملك
ألفونسو الثامن حشد قوّاته بين قرطبة وقلعة رباح،
على مقربة من قلعة الأرك Alarcos، ، فاتّجه
المنصور بجيوشه إلى ذلك المكان، إذ كان يسعى إلى
الاشتباك بعدوّه، وقبل أن يصل إليه بنحو مرحلتين
(مسيرة يومين) أمر بضرب معسكره هناك ونزول
الجيوش وتمركزها، فأقيم المعسكر السلطانيّ،
وامتلأت الأرض بمضارب الجند والمُجاهدين،
وكان ذلك يوم الخميس في الثالث من شعبان
٥٩١هـ/نوفمبر ١١٩٥م، وأمر المنصور بعقد مجلس
حربيّ فوريّ، لدراسة الخطّط التي يجب اتباعها
لخوض المعركة القادمة القريبة.

قشتالة تحشد قوات هائلة للمعركة الفاصلة

لم يكن ملكُ قشتالة ألفونسو الثامنُ، عندما تحدى سلطانُ الموحّدين ودعاه للقتالِ، بخطرٍ وخشونةٍ، ليظنَّ أنَّ المنصورَ، وقد أعيأه المرضُ وألحَّ عليه الداءُ بمراكش، سيغضبُ غضبَهُ الكبيرةَ، وينهضُ بجيوشِهِ الجرارةَ دونَ تريثٍ، ويقطعُ بها المسافاتِ الطويلةَ، ويعبرُها البحرَ، ويتحمّلُ جميعَ تلكَ الصّعابِ، ليَرُدَّ على تحدّيه، هذا الردُّ السريعُ العاجلُ، وعندما عرفَ القشتاليون مقدارَ الجيوشِ التي تَرَحَّفُ نحوهم، وجاءتْهُمُ الأخبارُ عن حماسَتِهَا

وحيثها للقتال، وعزمها على سحقِ عدوها سحقاً كاملاً، وغضبها لتحديه لها واستخفافه بقواها، رأى ألفونسو الثامن أن يتأهب للملاقاة المسلمين بكلّ قواه، وأن يشتير الممالك النصرانية الأخرى للوقوف إلى جانبه، لصدّ الخطر الإسلاميّ الداهم الذي يُهدّد جميع الممالك النصرانيّة، ولهذا طلب من قريبه ملكي ليون ونافارا تناسي الخصومات التي فرقت بينهم من قبل، وسألها أن يضمّا قواهما إلى قوته، لصدّ الخطر المشترك عليهم، فوعدها بالعون والمساعدة، خوفاً من غضب شعبيها، وكانا في قرارة نفسيهما، يُضمران للملك قشتالة حقداً وخوفاً، ويتمنيان له الهزيمة، ويؤكد المؤرخ الألمانيّ أشباخ أنّ ملك نافارا كان يعاون الموحّدين جَهراً على قشتالة، وأنّ ملك ليون كان يعاونهم سراً عليها، وإنّ كان كلّ منهما

يتظاهر بصداقته لألفونسو الثامن، ويَعِدُّه بالعَوْن،
وكان أن جَمَعَ الجُنْدَ، وتوليا القيادة بنفسيهما،
ولكنهما تحرّكا لِلْعَوْنِ في كثيرٍ من التردّدِ والبطء،
وشهدا وقائعَ المعركةِ بغيرِ همّةٍ ولا حماسَةٍ، حتى أخذَ
ألفونسو الثامنُ يشكُّ في صدقِ نيّتهما، وكان ملكُ
قشتالة قد تمكّنَ من حشدِ قوّاتٍ هائلةٍ، تُقدّرُها
المصادرُ الغربيةُ بأكثرَ من مائة ألفٍ مُقاتِلٍ، وترتفعُ
المصادرُ العربيةُ بها إلى ثلثمائة ألفٍ، وهي أعدادُ
ضخمةٌ على الحالين، بالنسبةِ لسُكّانِ مملكةِ قشتالة
الصغيرة، وإنْ تكنُ قُوّاتٌ "إضافيةٌ" قد انضمتْ إلى
فرسانِ قشتالة، مثل فرسانِ الداوية، وفرسانِ قلعةِ
رباج..

ويبدو أنَّ ألفونسو الثامنَ عندما بلغه زَحْفُ
المنصورِ بقوّاته التي لا تُحصى كثرةً واستعداداً

وحماسة، فُكِّرَ في تَجَنُّبِ الاشتباكِ بها، والامتناع
بالْحُصُونِ والقِلاعِ، حتَّى يُرَغِّمَ القَوَاتِ الزاجِفَةَ على
الانسحابِ يائسةً، إمَّا لِنَفَادِ الْمُؤْنِ، أو لَتَفَشِي
الأمراضِ، أو لِحُلُولِ الشتاءِ، ولكنَّ مَلِكَ قشتالةِ،
بعدَ أنْ تحدَّى المنصورَ ودعاهُ إلى القتالِ، بَغَطْرَسَةٍ
وفروسيةٍ، لا يستطيعُ أنْ يَخْتَبِىءَ من خِصْمِهِ وراءِ
الأسوارِ، وقد حشدتْ قشتالةُ جيشاً ضخماً حَسَنَ
الْأَهْبَةِ، يتلَهَّفُ أبطالُه إلى قِتالِ أعدائِهِم، فلم يبقَ
أمامَ ألفونسو والقواتِ التي يقودُها إلَّا أنْ يَخْوضَ بها
معركةَ الحياةِ أو الموتِ، أمامَ جيوشِ الموحِّدين
الزاجِفَةِ للقتالِ.

ومع ذلك فقد اختار ملكُ قشتالةِ بنفسِهِ ميدانَ
المعركةِ الْمُقْبِلَةِ، إلى جَنْبِ حِصْنِ الأركِ كي يمتنعَ به
الْمُهْزَمُونَ عندَ الضَّرُورَةِ، وأمرَ بأنْ تُضْرَبَ أُخْبِيَّةُ

جُنْدِيهِ عَلَى رِبْوَةٍ عَالِيَةٍ مُجَاوِرَةٍ لِلْحِصْنِ ، ذَاتِ مَهَاوٍ
وَأَحْجَارٍ كَبَارٍ ، قَدْ مَلَأَتْ السَّهْلَ وَالْوَعْرَ ، وَأَمَامَ
الرَّبْوَةِ سَهْلٌ عَرِيضٌ مُمْتَدٌّ ، يَصْلُحُ مَيْدَانًا لِلصِّدَامِ بَيْنَ
الْفَرِيقَيْنِ .

وَهَكَذَا أَقَامَ الْقَشْتَالِيُّونَ مُعَسَّكَرَهُمْ عَلَى تِلْكَ
الرَّبْوَةِ الْمُجَاوِرَةِ لِلْحِصْنِ الْأَرْكَ ، فَنَصَبُوا قَرَابَةَ مِائَةٍ
وْخَمْسِينَ أَلْفًا مِنَ الْخِيَامِ ، غَطَوْا بِهَا وَجْهَ الْأَرْضِ ،
وَرَبَطُوا إِلَى أَوْتَادِهَا آلَافًا لَا حَصْرَ لَهَا مِنَ الْخَيْلِ
وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ ، فَأَمَّا الْخَيْلُ فَلَكِي تَحْمِلَ فُرْسَانَهُمْ ،
وَأَمَّا الْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ فَلَكِي تَحْمِلَ أَثْقَالَهُمْ وَأَمْتَعَتَهُمْ ،
لَأَنَّ الْأَسْبَانَ لَا إِبِلَ لَهُمْ تَحْمِلُ الْمَتَاعَ ، وَحَشَدَ
الْقَشْتَالِيِّينَ دَاخِلَ حِصْنِ الْأَرْكَ أَنْوَاعَ السَّلَاحِ
وَالذَّخِيرَةِ لِلِاسْتِعَانَةِ بِهَا ، عِنْدَ الْحَاجَةِ ؛ وَبِاخْتِيَارِ
الْمَلِكِ الْقَشْتَالِيِّ لِمَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ ،

حقق لقواته ميزةً تكبرى على أعدائه، بإنزالها في موقع عالٍ مشرفٍ ممتنعٍ، تحميه من جانبٍ قلعةً حصن الأرك، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال، ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طُرُق ضيقة وعرة!

المنصور يخطط لخوض

معركة الأرك

لم يكن المنصورُ لِيَسْتَبْدَ برأيه في التخطيطِ
للمعركة الوشيكة، وقد حَرَصَ على اسْتِشَارَةِ القَادَةِ
ورؤساء الجنود والجماعات، ففاوض كلَّ ذي خِبرَةٍ
في فنِّ القتالِ، لِيَسْتَفِيدَ من تجارب غيره، واختَصَّ
القادة من أهل الأندلسِ بمزيدٍ من المشورة، وقال
لهم:

— إِنَّ جَمِيعَ مَنْ اسْتَشَرْتُهُ، وَإِنْ كَانُوا أُولَى بِأَسْ
ومعرفة بالحرب، لكنَّهم لا يَعْرِفُونَ من قتالِ
الفرنَجِ ما تعرفونه أنتم، لِيَتَمَرِّسْكُمْ بِهِمْ، وَتَمَرِّسْهُمْ
بَكُمْ، فابسطوا لي رَأْيَكُمْ، فَإِنِّي مُضِغٌ إِلَيْكُمْ!

فأحاله في الرأي على كبيرهم القائد الأندلسي
أبي عبدالله ابن صناديد، وكان من فحول رجال
الحرب رأياً وتجربةً وشجاعةً، فاصطفاه المنصور،
وعوّل في خطة القتال وتسيير العمليات الحربية على
رأيه وخبرته، وكان لذلك أثرٌ في تحقيق النصر
العظيم على النحو الذي سرى، وفي هزيمة
القشتاليين هزيمةً يائسةً ساحقةً، وقد بقيت الخطة
سراً بين المنصور والقائد الأندلسي ابن صناديد
لضمان نجاحها، وخلاصتها أن يبقى المنصور يوم
المعركة مع الموحدين والعبيد والحشم متأخراً عن
الجيش، على مسافةٍ يخفى بها عن أعين العدو،
ويُقدّم الشيخ أبا يحيى بن أبي حفص الهنتاتي، وهو
كبيرُ وزرائه، على رأس الجيش الزاحف، مع بعض
الرايات والطبول، في هيئة السلطان، فيلقّي الأعداء

وهم يحسبونه المنصور، فإن كانت الغلبة للمسلمين
فهو المطلوب، وإن كانت عليهم كان المنصور رذعاً
لهم وعوثاً، ثم يَسْتَأْنِفُ الْقِتَالَ مع الأعداء وقد انقلَّ
حُدُهم ولانت شوكتهم!

تلك هي الخطة التي أشار بها ابنُ صناديد على
المنصور، فاعتمدها، وانصرف إثر ذلك إلى العملِ
على تنفيذه، دونَ تردُّدٍ، ففي يوم السبت خامس
شعبان ٥٩١هـ/١١٩٥م جلس المنصور في قُبَّتِهِ
الحمراء الكبرى المُعَدَّة لِلجِهَادِ، ثم دعا بكبير
وزرائه المُخْلِصِ الأمين الشيخ أبي يحيى، وقَدَّمَهُ
على الجيش، قائداً عاماً، وعقد له الراية الكبرى،
ففرقت على رأسه الرايات، وقرعت بين يديه
الطبول، وأحاطت به قبيلته هتاتة، ثم عقد المنصور

الرّايات للقادة الآخرين ، وجعلهم تحت إمرة القائد العامّ الشيخ أبي يحيى الهنتاتي ، مع قبائلهم ، وهم :

١- القائد ابن صناديد على رأس جيش الأندلس .

٢- جرمون بن رياح على قبائل العرب .

٣- منديل بن عبد الرحمن المغراوي على قبائل مغراوة .

٤- محيو ابن أبي بكر بن حمّامة المريني - جد الملوك

المرينيين - على قبائل بني مرين .

٥- جابر بن يوسف العبد الوادي على قبائل بني عبد الواد .

٦- عبّاس بن عطية التوجيني : على قبائل بني توجين .

٧- تلجيت بن علي : على قبائل هسكورة وسائر المصامدة .

- ٨— محمد بن منغاد: على قبائل غمارة.
- ٩— الفقيه يخلق بن خزر الأوربي: على المتطوعة، وابن خلدون يؤكد أن الذي كان على المتطوعة يومئذ هو الشيخ أبو محمد عبد الواحد ابن أبي حفص.

وبعد أن أتم المنصور عقد الرايات للقادة، وأحاط كلاً منهم علماً بالمهمات التي تنتظره، أمر الشيخ أبا يحيى بالرحيل والتقدم أمامه إلى جهة العدو، فتحرك في قبيلته هتاتة، في الطليعة، وبين يديه القائد ابن صناديد وجيش الأندلس، وتبعته بقية قطعات الجيش، كل قبيلة وعليها قائدها، وبقى المنصور في جيش الموحدين والعبيد، وسار الجيش الإسلامي العظيم نحو حصن الأرك، على هذا الترتيب، بقيادة الشيخ أبي يحيى، وأمامه القائد ابن

صناديد في فُرسانِ الأندلسِ وحماتها، ومن خلفه
بقيةُ الجيشِ الكبير؛ وتحركَ المنصورُ بجيشِ الموحدِين
النظاميِّ والعبيد بعد ذلك، فكان الشيخُ أبو يحيى
إذا أقلعَ بجيشه عن موضعٍ صباحاً، خَلَفَهُ المنصورُ فيه
بجيشه مساءً، حتى أشرفَ الجيشُ الأوَّلُ على جموعِ
القشتاليين وقد أقاموا مُعسكرَهُم على تلكِ الرِّبوةِ
العاليةِ، إلى جانبِ حِصْنِ الأرك، فنزل الشيخُ أبو
يحيى بجيشه الكبير في السَّهْلِ المنبسطِ، ضَحوةَ يومٍ -
الأربعاء الثامن من شعبان ٩٥١هـ / ١٨ تموز ١١٩٥م،
وانصرفَ الجيشُ إلى إقامةِ مضاربه واتَّخَذَ مراكزه،
في انتظارِ ساعةِ الاشتباك، وقد غَدَّتْ جِدَّ قَرِيبَةً!

وكان القشتاليون يُشرفون من مواقعهم العاليةِ
على وصولِ قطعاتِ الجيشِ الإسلاميِّ إلى مَيْدَانِ
المعركة، تحت أعلامها الخضراء - وهو لونُ

الموَحِّدين — وقد بثوا من حولها العيون، لِيَتَنَقَّلَ إليهم
أنبأها، وتُقَدَّرَ لهم أعدادها، ومقادير السلاح
والذخيرة، ونوايا القادة وخططهم، ويبدو أن خطة
المنصور للمعركة الوشيكة ظَلَّتْ سِرِّيَّةً، فلم يستطع
جواسيس العدو أن يكشفوها، ولم يعرف القشتاليون
أن الجيش الإسلامي الذي يَرْحَفُ إلى لقاءهم قد
انشَطَرَ إلى جيشين، الأولُ يضمُّ الجنودَ الخفيفة،
والرماةَ وجموعَ المتطوعين من المُجاهدين، والثاني هو
القوة الاحتياطية المكوَّنة من صَفْوَةِ الجند النظاميِّ
والحرس السلطانيِّ، ولم يعرف القشتاليون أن قائد
الجيش الأول لم يكن المنصور سلطانَ الموَحِّدين، إلَّا
بعد فوات الأوان.

وقائع المعركة وسير

عملياتها الحربية

عرف المسلمون بُعَيْدَ وصولهم إلى مَيْدَانِ المعركة أنَّ اعداءهم القشتاليين قد جمعوا لها جموعاً ضخمةً، لم يجتمع لهم مثلها قبل ذلك اليومِ قَطُّ، ولَمَّا تراءى الجمعان، وأبصر المسلمون كثرةَ الجموعِ النصرانيَّةِ، وقد انتشرت مضاربُها التي لا حصرَ لها (مائة وخمسون ألف خيمة) فوقَ تلك الربوة المُشْرِفةِ، إلى جانب قلعةِ الأركادركهم الاندهاش وقدروا قواتِ قشتالة بثلاثمائة ألف مقاتلٍ، وأقلَّ تقديرٍ لها هو مائة وخمسة وعشرون ألفاً، منهم خمسة وعشرون ألفاً من

الفرسان، والباقون من المشاة، وكانت معنوياتهم عالية، وكان شوقهم للقتال كبيراً، وكان تحدي ملكهم ألفونسو الثامن لسلطان الموحدين المنصور يصور جانباً من عنفوان أبطالهم، وأحلام فرسانهم بسحق الجيش الإسلامي والقضاء عليه، حتى إن جماعات من التجار اليهود كانت قد وصلت إلى معسكرهم لاشتراء أسرى المسلمين!

وظلت قطعات الجيش الإسلامي الأول طوال يوم الأربعاء تتخذ مراكزها، وتتهيأ للمعركة، وعند المساء وصلت قوات الجيش الثاني الاحتياطي بقيادة المنصور، فأخذت مواقعها خلف بعض التلال، ولم يشعر القشتاليون بوصولها، ونشط الخطباء والوعاظ في حث المقاتلين على الإخلاص، والحض على الصدق والثبات في القتال، لنصرة دين الله

وإعلاء كلمة الله، وكان المنصور في ذلك اليوم شُعْلَةً
من الشَّجَاعَةِ وَالْهَمَّةِ ومضاء العزيمة والحِكْمَةِ
والتواضع، وكان يُقْبَلُ على جماعاتِ المُقاتِلين
ويُخَاطَبُهُمْ بصفاء وإخلاص، وخطب في بعض
تلك الجماعات الحاشِدة، فكان لِيَصْدُقَ لهجته وورعه
أثرٌ كبيرٌ في النَّاسِ، فسالت دموعُهُم وهم يسمعون
أميرَ المسلمين يُناشدُهُم أن يُسامحوه بقوله:
— أَيُّهَا النَّاسُ اغْفِرُوا لِي فَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ صَدْرُ
مَنِي!

فَضَجَّ النَّاسُ بِالْبُكَاءِ وصاحوا:
— بَلْ يُطَلَّبُ الرِّضَى والغُفْرَانُ مِنْكُمْ!

ونشطت نفوسُ النَّاسِ، وصفت نياتُهُم،
وبلغت حماسَتُهُم لِلْقِتَالِ كُلِّ مَبْلَغٍ، وأمضى القائد
العامُّ الشَّيْخُ أَبُو يَحْيَى جانباً من اللَّيْلِ في تنظيم قُوَّاتِهِ

وتعبثها وتحديد مواقعها، فكانت التعبئة تحت
الغلس، وحكى بعض المؤرخين أنَّ المنصور بات تلك
الليلة عاكفاً بِمُصَلَّاهُ على الركوع والسجود، يُناشِدُ
رَبَّهُ نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّهُ أَغْنَىٰ اغْفَاءَهُ فَرَأَىٰ مَلَكاً يَنْزِلُ
مِنَ السَّمَاءِ، عَلَىٰ فَرَسٍ أَبْيَضَ، وَبِيَدِهِ رَايَةٌ خَضْرَاءُ،
يَحْمِلُ إِلَى الْمَنْصُورِ الْبُشْرَىٰ بِالنَّصْرِ الْقَرِيبِ بِحَوْلِ اللَّهِ،
فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ الْمَنْصُورُ قَصَّرَ رُؤْيَاهُ عَلَى قَوَادِ الْجُنْدِ،
وَسَأَلَهُمْ أَنْ يُذِيعُوا خَبَرَ هَذَا الْحُلُمِ بَيْنَ سَائِرِ الْجُنْدِ،
لِيَزْدَادَ النَّاسُ طَمَآنِينَةً وَبَصِيرَةً وَحِمَاسَةً لِلْقِتَالِ،
وَإِقْبَالاً عَلَى مُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ.

وعند فجر الخميس التاسع من شعبان
٥٩١هـ/ ١٩ من تموز ١١٩٥م كان القائد الاسلامي
العام الشيخ أبو يحيى قد أنهى تعبئة جيشه تعبئة
الحرب: فجعل عسكر الأندلس في الميمنة، بقيادة

ابن صناديد، وجعل في الميَسرة الجند العرب (من)
أعقاب فاتحي المغرب المسلمين) ومعهم قبائل زناة
والمصامدة وسائر القبائل البربرية الأخرى، وجعل
في المُقَدِّمة المتطوعة والأغزاز والرماة، وبقي هو في
القلب، في قبيلته هنتاة، وقد خفقت الرايات
الخضراء فوق مضرب قياداته، فلم يشك القشتاليون
بما دبر المسلمون، وحسبوا أن السلطان المنصور هو
الذي يتولى قيادة الجيش المعبا لقتالهم.

وعندما أخذ الناس مراكزهم من حومة القتال
خرج القائد العربي جرمون بن رياح، يمشي بين
صفوف المسلمين، ويحضهم على الثبات والصبر عند
اللقاء، ويثير في النفوس المؤمنة الرغبة في
الاستشهاد في سبيل الله.

وكذلك نظم ملك قشتالة ألفونسو الثامن قوات

بجَنَدِهِ، وقد اخْتَارَ لِعَسْكَرِهِ فِي مِيدَانِ المَعْرَكَةِ مَوْقِعاً مُمْتَازاً كَمَا قَدَّمْنَا، يُشْرِفُ عَلَى عَسْكَرِ المُسْلِمِينَ، الَّذِينَ تَمَرَّكَزُوا فِي ذَلِكَ البَاسِطِ المَمْتَدِّ، بِمَوْضِعٍ يُعْرَفُ بِفُحْصِ الحَدِيدِ، وَاحْتَلَّ القَشْتَالِيُونَ سَفْحَ التِّلِّ، وَعَسْكَرُوا فَوْقَ الرَبْوَةِ العَالِيَةِ، إِلَى جَانِبِ حِصْنِ الأَرَكِ، فَكَانَ لِمَوْقِعِهِمُ العَالِي المُشْرِفِ مِيزَةٌ عَلَى مَوْقِعِ المُسْلِمِينَ فِي بَدْءِ القِتَالِ.

وَكَانَ المَلِكُ القَشْتَالِي قَدْ اخْتَارَ كَتِيبَةً عَظِيمَةً فِي نَحْوِ عَشْرَةِ آلَافٍ فَارِسٍ، مِنْ خَيْرَةِ مُقَاتِلِيهِ، كُلُّهُمْ مُدَجَّجٌ فِي الحَدِيدِ، وَكَانَ كُلُّ اعْتِمَادِهِ فِي الحَرْبِ عَلَى هَذِهِ الكَتِيبَةِ المُخْتَارَةِ مِنْ أَشَجَعِ فُرْسَانِهِ، وَكَانَ أَفْرَادُهَا صَبَاحَ يَوْمِ المَعْرَكَةِ قَدْ تَلَقَّوْا صَلَوَاتِ القُسُسِ عَلَيْهِمْ، وَرَشُّوهُمْ بِمَاءِ المَعْمُودِيَّةِ، وَبَارَكُوهُمْ، وَوَعَظَوْهُمْ، وَقَدْ أَقْسَمَ الفُرْسَانُ عَلَى الصَّلِيبِ أَنْ

يُثْبِتُوا فِي قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا يَتَقَهَّقُوا عَنْ مَوَاضِعِهِمْ،
حَتَّى يَهْزِمُوا أَعْدَاءَهُمْ أَوْ يَهْلِكُوا مِنْ دُونِهِمْ.

وَقَدْ احْتَفَظَ الْفُونَسُو الثَّامِنُ بِقِيَادَةِ هَذِهِ الْكُتَيْبَةِ
الْمُخْتَارَةِ لِنَفْسِهِ، وَجَعَلَ مِنْهَا قَلْبَ جَيْشِهِ، وَكَانَ أَكْثَرُ
مَعْوَلِهِ فِي الْمَعْرَكَةِ عَلَى بَسَالَتِهَا وَإِقْدَامِهَا، وَكَانَ أَمَلُهُ
أَنْ يَضُدَّ بِهَا الْمُسْلِمِينَ مِنْذُ بَدَايَةِ الْمَعْرَكَةِ، فَيُضْعِفُ
بِشَوْكَتِهَا صُفُوفَهُمْ، وَيَقْلِلَ بِهَا حُدُودَهُمْ، وَيُرْدُّ بِهَا
هَاجِمَهُمْ.

وَبَدَأَتِ الْمَعْرَكَةُ بِزُخْفٍ مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ
الْإِسْلَامِيِّ، فَتَقَدَّمَتِ صُفُوفُهَا الْمُهَاجِمَةُ إِلَى سَفْحِ التَّلِّ
الَّذِي يَحْتَلُهُ الْقَشْتَالِيُّونَ، وَانْدَفَعَتْ إِلَيْهِ تَحَاوُلُ
اِقْتِحَامَةٍ، عِنْدَمَا تَقَدَّمَتِ كُتَيْبَةٌ مِنَ الْفُرْسَانِ
الْقَشْتَالِيِّينَ، الْمُثْقَلِينَ بِالْأَدْرُوعِ، وَانْقَضَّتْ كَالسَّيْلِ
الْبَحَارِفِ الْمُتَدَفِّعِ مِنْ عَلِيٍّ، عَلَى صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ

المهاجمين، ونادى منادي القائد العام الشيخ أبي يحيى:

— يا معشر المسلمين، أثبتوا في مصافكم،
وأخْلِصُوا لِلَّهِ تَعَالَى نِيَّتَكُمْ، واذكروا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ في
قلوبكم!

وبرز عامر الزعيم، من أمراء العرب، فطاف
على صفوف المسلمين في مَيْسَرَةِ الجيش، وحضر
الناسَ على الصبرِ والثبات، واندفعت حناجرُ
المسلمين بالتكبير، وهم يواجهون حَمَلَةَ الكتيبة
القشتالية، كالبنيانِ المَرْضُوصِ، حتى اندَقَّتْ
رماخُهم في صدورِ خيلها، وردَّوها على أعقابها،
فتقهَّرت قليلاً، ثم عاودت الحَمَلَةَ في هجومٍ كاسحٍ
ثانٍ، فصمد المسلمون له وصدُّوه، فانكفأ الفرسانُ
القشتاليون ليعززوا صفوفَهم بقوى جديدة، ويقوموا

بهجومهم الثالث، وقد ضاعفوا جهودهم، وانقضوا على المسلمين في إصرارٍ على القتال واستهانة بالموت، فاقتحموا صفوف الجيش الإسلامي، وفرقوها ومزقوها، وخلص بعضهم إلى قلب الجيش، فوصلوا إلى القائد العام الشيخ أبي يحيى، وهم يظنونه السلطان المنصور، واستماتوا في القتال حتى تمكنوا من إصابته، فسقط رحمه الله شهيداً، بعد أن أحسن البلاء، وقاتل بمئته الشجاعة والبسالة، واستشهد معه جماعة من المسلمين من قبيلة هنتاة، ومن المجاهدين المتطوعين، ولقي آلاف من المسلمين مصرعهم في ذلك الهجوم القشتالي الثالث، وظنَّ الأسباب أن النصر قد لاحت بوادره لهم، بعد أن حطّموا قلب جيش الموحدين، وقتلوا سلطانهم بزعمهم، ولكنهم دُهِشُوا عندما تلقوا هُجُوماً كاسِحاً

مضاداً، لم يمهّلهم لحظةً ليتبينوا مواقعهم ويذكرُوا
حقيقة ما اعتقدوهُ من نَصْرِ قَرِيبٍ، فَأَنْقَضَتْ مَيْمَنَةُ
الجيش الإسلامي، وفيها عسكرُ الأندلس بقيادة أبي
عبد الله بن صناديد، على قلبِ الجيشِ النصراني،
وشاركهم في الهجوم بعضُ بطونٍ من قبيلة زناتة،
وَنَشِبَتْ بين الفريقين المتقابلين حربٌ حاميةٌ
الوطيس، تحت سُحُبٍ كثيفةٍ من الغبار، وقد أظلمَ
الجوّ، واختلط الرجالُ بالرجال، وانفرد كلُّ مُحاربٍ
بِمَن يتصدى له، وأرجاء الميدانِ تدوّي بوقعِ حوافِرِ
الخيَل، وقرعِ الطبول وأصواتِ الأَبواق، وصلصلةِ
السّلاح، وصياحِ الجنْدِ، وأنينِ الجرحى! إنها أهوالُ
معركةِ حوَمِ الموتِ فوقَ مَيدانِها، ليشهدَ ألواناً من
البطولاتِ عندَ كلِّ من الفريقين: فالمسلمون
والنصارى قاتلوا في ذلك اليومِ الرهيبِ بِاسْتِبْسَالٍ

واستماتة، في معركة بالغة الضراوة، وانقضَّ المسلمون على أفراد الكتيبة المُختارة من زهرة فرسان قشتالة، فطحنوه طحناً، وأفنوه فناء مروّعاً، ولم يلجأ الفرسان إلى الفرار للإبقاء على أنفسهم، لأنَّهم أقسموا عند الصباح على الصمود والثبات حتى الموت أو النَّصر، فلما أضاعوا النصر أمام عدوِّ يفوقهم عدداً، ولا يقل عنهم إيماناً وبسالة وتضحية، حصَّدهم الموت حصداً لا رحمة فيه ولا شفقة، وانكسرت شوكة جيش قشتالة بمصارع هؤلاء الفرسان، وبدأ لكلِّ عين أن نصر المسلمين على الاسبان لن يتأخر طويلاً..

حينذاك، أسرع كوكبة من فرسان العرب إلى مضرب السلطان المنصور، لإعلامه بأنَّ الله تعالى قد قلَّ شوكة العدو، وأنَّ قواته قد أشرفت على الأنهزام،

وتلقى المنصورُ النبأَ السعيدَ بالشكرِ لله والحمدِ له على فضله، وأمرَ الجيشَ الاحتياطيَّ أنْ يتحرَّكَ لِدُخُولِ المعركةِ، فرُفِعَتِ الرَّايَاتُ، وخفقتِ البنودُ، وقرعتِ الطبولُ، ورفع المسلمون أصواتَهُم بالتكبيرِ، وزحفوا نحو المعركةِ، وعندما شاهد ألفونسو الثامنُ، من مكان قيادتهِ العالي المشرف على الميْدَانِ، وصولَ الكتائبِ الجديدةِ، والرَّايَاتُ تخفقُ فوق رؤوسِها، وسمع زعقاتِ الطُّبُولِ والأبواقِ وأصواتِ المُجَاهِدِينَ بالتكبيرِ، وقد زُلْزِلَتِ الأرضُ بصداها، قال لمن حوله مُرتعاً:

— ما هذا؟

فَقِيلَ لَهُ:

— هذا المنصورُ قد أَقْبَلَ بجيشه، وما كان يُقاتلك طوالَ اليومِ غيرُ طلائع جيشه ومقدماته!

عند ذلك ملأ الرغبُ قلوبَ القشتاليين، وهم
يشهدون هجومَ جيشِ المنصورِ على البقيةِ الباقيةِ من
فلولهم، وانهارتْ معنوياتُهُم إلى الحضيضِ، وأدركَهُمُ
اليأسُ من تحقيقِ الغلبةِ على عدوِّهم، وتهيأتْ
نفوسُهُم للبحثِ عن منفذٍ للنجاةِ من الكارثةِ التي
غدَتْ تُحاصِرُ جوعَهُم!

واجتاحَ جيشُ الموَحِّدين بقيادةَ المنصورِ سفوحَ
تلكِ الربوةِ التي أقام فوقها القشتاليون معسكرَهُم،
وهم يلاحقون فلولَ المهزَمين، وقد ولّوا الأدبارَ، لا
يلوون على شيءٍ، واتجهوا نحو حِصْنِ الأرك، ليلتجئوا
إليه ويعتصموا به، واشتدَّ القتلُ بالتَّصاري،
فتساقطوا بالآلافِ، وتكدَّستْ جثثُ القتلى فوقَ
السفوحِ، والفُرسانُ المسلمون يلاحقون المُهزَمين،
يقتلون ويأسرون، أما ألفونسو الثامنُ، فقد أدركَ أنَّه

مُلاقٍ نَتِيجَةً حُـمِيقِهِ وَتَحْدِيهِ وَغَطْرَسْتَهُ وَاسْتِثَارَتَهُ
لِلْمَنْصُورِ، وَعَصَرَ الْحُزْنَ قَلْبَهُ وَهُوَ يَشْهَدُ تَسَاقُطَ مُعْظَمِ
فُرْسَانِ قِشْتَالَةِ مَنْ حَوْلِهِ، وَيُؤَكِّدُ الْمُؤَرِّخُونَ الْغَرِيبُونَ
— وَمِنْهُمْ أَشْبَاحُ — أَنَّ الْمَلِكَ الْقِشْتَالِيَّ لَمْ يَشَأْ،
بِالرَّغْمِ مِنْ مُوَاجَهَتِهِ لِحَظَرِ الْهَلَاكِ أَنَّ يُنْقِذَ نَفْسَهُ
بِالْفِرَارِ، وَأَنَّ يَحْتَمِلَ عَارَ الْهَزِيمَةِ، لَوْلَا أَنَّ بَقِيَّةً قَلِيلَةً
مِنْ الْفُرْسَانِ الْقِشْتَالِيِّينَ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَنْجُوَ، وَأَنَّ
تَقْتَادَ الْمَلِكَ بَعِيداً عَنِ الْمِيدَانِ، فَأَنْقَذَتْ بِذَلِكَ حَيَاتَهُ!
إِلَّا أَنَّ الْمُؤَرِّخِينَ الْمَغَارِبَةَ يَذْكُرُونَ أَنَّ أَلْفُونَسُو الثَّامِنَ
فَرَّ إِلَى حِصْنِ الْأَرْكِ، فَظَنَّ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ قَدْ تَحَصَّنَ
بِهِ، فَحَاصَرُوا الْحِصْنَ وَاقْتَحَمُوهُ عَثْوَةً وَأَضْرَمُوا النَّارَ
فِي أَبْوَابِهِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا الْمَلِكَ الْقِشْتَالِيَّ فِيهِ، لِأَنَّهُ
عِنْدَ لُجُوثِهِ إِلَى الْحِصْنِ، دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْ بَابٍ، وَخَرَجَ
لِتَوِّهِ مِنْ بَابٍ آخَرَ مِنَ النَّاحِيَةِ الْآخَرَى، وَنَجَا بِنَفْسِهِ
مَعَ عَدَدٍ مِنْ وَجُوهِ قُوَّادِهِ لَا يَزِيدُونَ عَلَى الثَّلَاثِينَ!

ويقول ابنُ خلدون إنَّ خمسةَ آلافٍ من زُعماء
الفرنج اعتصموا عند الهزيمةِ بحصن الأرك،
فاستنزَلَهُم المنصورُ على حُكْمِهِ، وفادى بهم مثلَ
عديهِم من المسلمين.

وهكذا انتهت معركةُ الأركِ بهزيمةٍ ساحقةٍ
لِلنصارى الاسبان، سَقَطَ فيها قُرابةُ مائة ألفٍ من
قتلاهم، كما تذكر المصادرُ العربيةُ، وتحاول المصادرُ
النصرانيةُ تخفيفَ الكارثةِ بالتقليل من أعدادِ القتلى،
فيذكر أشباخ أنهم ثلاثون ألفاً قتل، وهو عدد لا
يتناسب مع عِظَمِ الكارثةِ التي أصابَت القشتاليين،
ولا يُمثِّلُ حقيقةَ الهزيمةِ الكبرى التي لحقتهم، وإنَّ
يَكُنْ أشباخ يعترفُ بأنَّ زهرةَ الفروسيةِ الاسبانيةِ قد
سُحِقَتْ في معركةِ الأركِ الرهيبةِ.

إنَّ تقديرَ المصادرِ العربيةِ لعَدَدِ القتلى من

نصارى الاسبان في معركة الأرك أجدد بالاعتماد
والتصديق، وهذه المصادر نفسها تُقرُّ أن شهداء
المسلمين في تلك المعركة لم يقلوا عن العشرين ألفاً،
وقد سقط أكثرهم في بداية المعركة، عند تصديهم
لردّ الهجمات القشتالية الأولى على الجيش
الإسلامي الأول، فإذا كان عدد قتلى المسلمين وهم
المنتصرون في المعركة عشرين ألفاً فإن عدد القتلى
من الاسبان ينبغي أن يكون عدّة أضعاف، وهم
المنهزمون المُتسحِّقون الذين حَصَرَتْهُمْ سيوفُ
المُوحِّدين، وطحنت فرسانهم طحناً، ويذكر
المؤرخون أن من عادة المُوحِّدين أنهم يُؤثرون قتل من
يحاربونهم من المشركين على أسريهم؛ وهذا هو سرُّ
كثرة قتلى النصارى في معركة الأرك.

وذكر مصدر عربي أن عدد أسارى معركة

الأرك من القشتاليين أربعة وعشرون ألفاً، وأنَّ
المنصورَ مَنْ عليهم جميعاً وأطلقهم، فشقَّ ذلك على
جميع الموحَّدين، وعَزَّ على سائر المسلمين ما فعل،
وعَدُّوا عملةً سقطت من سقطات الملوك التي لا تُغْفَرُ!

أما الغنائمُ التي غنمها المسلمون في ذلك اليوم -
فكانت شيئاً يُفوقُ الحَضَرَ، من الأموالِ والذخائرِ
والأسلحةِ والأمتعةِ والخيلِ والبغالِ والحميرِ: فمن
الخيامِ - غنم المسلمون ١٤٣ ألفاً ومن الخيلِ ٤٦ ألفاً
(وقيل: ٨٠ ألفاً) ومن الحمير ٤٠٠ ألف، ومن
النبال ١٠٠ ألف، وسببُ كثرةِ البغالِ والحميرِ أنَّ
الاسبان كانوا يعتمدون في حَمْلِ أثقالِهِم وأمتعتهم
عليها، كما يعتمدُ العربُ والمغاربةُ على الإبلِ في
ذلك.

وكان منادي السلطانِ أذاعَ في المسلمين أنَّ من

غنم شيئاً فهو له ، باستثناء السلاح ، وقد أخصي ما
حُمِلَ من الأسلحة إلى خزانة المنصور فكان يزيدُ على
سبعين ألفاً من الدروع ! وقد بيع الأسيرُ القشتاليُّ
بَعْدَ المعركة بِدِرْهَمٍ ، وبيعَ السيفُ بنصفِ درهمٍ ،
والفرسُ بخمسةِ دراهمٍ ، والحمارُ بدرهمٍ ، وامتلأتْ
أيدي الناسِ من كثرةِ الغنائمِ والأموالِ والأمتعةِ ،
وقد أمر المنصورُ بتوزيعها بمقتضى الشرعِ ، وأنفقَ من
حصّةِ الخمسِ الخاصةِ بالسُّلطانِ على بناءِ مَسْجِدٍ
كبيرٍ في اشبيلية ، اشتهرت منارتهُ بارتفاعِها البالغِ
(وقد حُوِّلَتِ المنارةُ إلى برجٍ للناقوسِ ، بعد خروجِ
المسلمين من اسبانيا ، وهي ما تزالُ باقيةً إلى اليومِ ،
وتُعرفُ بِبُرْجِ الجيرالدا ، وتُعدُّ آيةً من آياتِ الفنِّ
العربيِّ الإسلاميِّ الخالدِ في الأندلسِ) .

وقد افتتحَ المنصورُ عقبَ الموقعةِ الكبيرةِ حصنَ

الأرك واستولى على ما فيه من الذخائر والأسلحة،
كما اقتحم قلعة رباح المنيعه الأخرى، وكان يُريدُ
أن يعم في بلاد الفرنج وخصونهم فتحاً وسبياً
وأشراً، لولا أن الغنائم الكثيرة كانت تُثقل حركة
الجيش، فأثر أن يرتد إلى اشبيلية للاستقرار بها إلى
حين.

أما الملك القشتالي المهزوم المقهور، فقد وصل
إلى عاصمة ملكه طليطلة، في أسوأ حال من الحزن
والإزلال والألم لأشنع هزيمة وأكبر كارثة حلت
بمملكة قشتالة، ومما زاد في ألمه وأحزانه أن تلك
الهزيمة لم تلحق به دون معاونية من بعض النصاري
الفارين من قشتالة، والذين كانوا يرافقون سلطان
الموحدين، ويمدونه بالنصح، وكان في مقدمة هؤلاء
الكونت بيدرو فونانديز دي كاسترو، المبعث من
قشتالة، الممتلىء حقداً على ألفونسو الثامن وحكمه.

وفي مقام المنصور في أشبيلية أمر أن تُذاع أخبارُ
النصر العظيم الذي حقَّقه الموحِّدون في معركة الأرك
الحاسمة، من منابر المساجد الجامعة في أنحاء مملكته
الشاسعة، وأن تُرسل الكتبُ بأنباء النصر الإسلامي
إلى بقية أنحاء العالم الإسلامي، لتعمَّ الفرحة قلوب
المسلمين في كلِّ مكان، وقد كان المنصور على
صلوات وثيقة وطيبة مع معظم ملوك المسلمين في
عصره.

أصداء المعركة الحاسمة وآثارها

انتهت المعركة بهزيمة القشتاليين على النخو الذي رأيناه، وتم سحق قواتهم سحقاً كاملاً، واستولى الموحدون على معسكرهم بجميع ما فيه من المتاع والذخائر والأموال، وهرب الملك ألفونسو الثامن من الموت مع عدد قليل من قواده، وعادوا أذلةً مقهورين إلى طليطلة، وقد عمّت الكارثة جموع النصارى بالأحزان، وملكهم الرعب من أن يوالي المنصور الزحف على المدن النصرانية وقراها، بجيشه الظافر، ليعيث فيها نهباً وخراباً، وقتلاً وسبياً، بعد أن حطمت معركة الأرك قدرة مملكة قشتالة على الدفاع، وسحق الموحدون جيشها.

ويروي المؤرخون أنَّ الملكَ المقهورَ ألفونسو الثامن
عندما رَجَعَ إلى عاصمِيهِ في أسوأ حالٍ، حلقَ لحيَّتَهُ
ورأسَهُ، ونكَّسَ صليبَهُ، وركبَ حماراً، وأقسم ألاَّ
يركبَ فرساً ولا بغلاً، ولا ينامَ على فراشٍ، ولا
يقربَ النساءِ، حتى تُنصرَ النصرانيَّةُ، وراح يجمعُ
الجموعَ العظيمةَ، للانتقامَ لهزيمَتِهِ المروِّعةِ، وقد حرَّم
على نفسه كلَّ مُتعةٍ!

أما المنصورُ فقد أذاعَ أنباءَ النصرِ الحاسمِ الذي
أحرزته جيوشُهُ على نصارى الاسبان، فعمَّتِ الفرحةُ
أرجاء مملكةِ الموحِّدين، في الأندلس وفي الشَّمالِ
الأفريقيِّ، ووصلتْ أنباءُ النَّصرِ إلى بقيةِ العالمِ
الإسلامي، فارتفعتْ شهرةُ الموحِّدين الحربيَّةُ في كلِّ
مكانٍ فيه، وبلغَ سلطانُ دولتهم أوجَ العظمةِ والقوةِ
بعدَ معركةِ الأرك، وأصبحتِ الممالكُ النصرانيةُ في

اسبانيا تخطب وُدَّ المنصور، وتسعى لِعَقْدِ الْمُحَالَفاتِ
معه، وبدأتْ مملكتا ليون ونافارا القيام بِمُفَاوَضَاتِ
سِرِّيَّةٍ لِعَقْدِ تحالُفٍ مع الموحِّدين، وانتهزتا فُرْصَةً
انسحاق قشتالة أمامَ الموحِّدين، فشهرتا الحربَ
عليها، وكان ملكُ ليون يَعتقدُ أَنَّهُ يستطيعُ بِمعاونةِ
المسلمين له أنْ يقومَ بِفُتُوحاتٍ في مملكةِ قشتالة
نفسِها، وكذلك استردَّ المسلمون بعد معركةِ الأركِ
تفوقَهُم على جيرانهم النصارى في اسبانيا، وغرقت
اسبانيا النصرانيَّةُ من جديدٍ في الحروبِ الأهليَّةِ،
فأصابها الوَهْنُ، وانصرفتْ إلى ترميمِ بنائها
الداخليِّ، وعكفتْ مملكةُ قشتالة على إعادةِ تكوينِ
جيشِها، للصمودِ في وجهِ أطماعِ شقيقتها مملكتي
ليون ونافارا، والعمل على الانتقامِ من المسلمين
لهزيمتها في الأرك، بُغيةَ استعادةِ مركزِها وهيبَتها،
باعتبارها كُبْرَى دُولِ النصرانيَّةِ الخمسِ في اسبانيا.

وقد رأى المنصور، وهو مُقيمٌ في اشبيلية، يُدبِّرُ
أُمُورَ دولته في الأندلس، أن ينتهزَ فُرْصَةَ الظروفِ
القاسيةِ التي تُرهقُ مملكةَ قشتالة، فيوالي غزوَ
أراضيها، ويقضي على البقيةِ الباقيةِ من قُوَّاتها، فقام
في أوائل عام ٥٩٢هـ/١١٩٦م بحملةٍ على الأراضيِ
النصرانيةِ، فأخترقَ ولايةَ استراما دوره، وعبرَ مياةَ
نهرِ الوادي الكبير، في اتجاه نهر التاجه، واستولى على
عَدَدٍ من الخُصُونِ والقللاع، إلى أن ظهرَ بجيوشه أمامَ
أبوابِ طليطلة، عاصمةِ قشتالة، وكان ألفونسو
الثامن قد اختفى مع جيشه الصغير وراء أسوارِ
عاصمته المنيعَةِ، ولم يجرؤ أن يبرزَ للقاء المنصور في
المَيْدَانِ الفسيحِ المكشوف، نظراً لانْهِيَارِ معنوياتِ
جنده، وانكسارِ نفوسِهِم، وقلةِ عدديهِم، ولكنَّ الملكَ
القشتاليَّ كان مُصمِّماً على الدفاع عن عاصمته حتى

النفيس الأخير، فاستعدّ لمواجهة الحصار الخائِقِ
الذي أقامه المنصورُ حَوْلَ طليطلة، وعندما أيقَنَ
سُلطانُ الموحّدين أنَّ من العبث أن يستمرَّ في حصارِ
العاصمة القشتالية، وأنَّ جميعَ مُحاولاتِ جيشه
لاقتحامِ موقعها المنيع لم تُسفرْ عن النجاح، أمرَ جُنْدَهُ
بَعْدَ عشرةِ أيامٍ من الحصارِ الفاشل بالرحيل، وارتدَّ
عن أسوارِ طليطلة إلى مدينةِ طلمنكة، فاقتحمها
عنوةً، وقتل جنودَها، وسبى أهلها، وأحرقَ المدينة
وهَدَمَ حُصُونَهَا، وتركها — كما يقولُ المؤرخون —
قاعاً صفصفاً!

لقد أراد المنصورُ أن يوجّه ضرباتٍ مُميتةً إلى
جبهةِ القوى النصرانية التي ما فتئت تُهدّدُ الوجودَ
الإسلاميَّ في الأندلس، وتُباغِتُ المدنَ والحصونَ
الإسلاميةَ بغاراتِها، وتفعلُ بسكانِها المسلمين

الأفاعيل، لَتَبَثَ الخوفَ والدُّعْرَ في نفوسِهِم،
وتَضَطَّرهم إلى مُغَادِرَةِ أَرْضِهِم، وتسليم قِلَاعِهِم
وَقُرَاهِم! هي سياسةٌ مَرْسُومَةٌ لِتَشْرِيدِ المسلمين
الأنْدَلُسِيِّينَ، وطَرْدِهِم من بِلَادِهِم، بعدَ خَمْسَةِ قُرُونٍ
من إِقَامَتِهِم فيها، وإِعْمَارِهِم لِأَرْضِهَا، وَجَعْلِ
الِيَابِ فيها جَنَاتٍ وَارِقَةً الظَّلَالِ! وهكذا يَمَكِّننا
تَفْسِيرُ الحِمَلَاتِ التَّخْرِيبِيَةِ الضَّارِيَةِ الَّتِي قَامَ بِهَا
الْمَنْصُورُ، فِي الْأَرْضِ التُّصْرَانِيَّةِ، فَهَدَمَ عَامِرَتَهَا،
وَدَمَّرَ مَرَايِقَهَا، وَدَكَّ حَصُونَهُ كُلَّ قَلْعَةٍ وَأَسْوَارَ كُلِّ
مَدِينَةٍ قَدَرَ عَلَى أَخْذِهَا، وَقَتَلَ كُلَّ مُحَارِبٍ فِيهَا،
وَيَقُولُ المؤرِّخُ الأَلْمَانِيُّ أَشْبَاخُ:

«وَصَلَ يَعْقُوبُ الْمَنْصُورُ إِلَى مَقَرِّهِ مِنْ ضِفافِ
دَوِيرِهِ، الَّذِي لَمْ يَقْتَرِبْ مِنْ ضِفافِهِ مِنْذُ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ
أَيُّ جَيْشٍ إِسْلَامِيٍّ، وَعَاثَ الْمُؤْتَحِدُونَ عِنْدَ عَوْدِهِمْ فِي

الأراضي النصرانية أيًا عَيْثُ، فلم تطأ أقدامهم
مكاناً فيها إلا تركوه أطلالاً دارة!».

عند ذلك لم تجد الممالك النصرانية بدءاً من
طلب الصلح، ولم يجد ملك قشتالة ألفونسو الثامن
بدأ من الركوع، وقد بلغه خبر الحلف الذي عقده
ملكا نافارا وليون مع الموحدين، فأرسل إلى المنصور
رُسله يطلبون مُهادنته، ويؤكدون له حرص ألفونسو
الثامن على السلام!

وتلقى المنصور رُسل الملك القشتالي المهزوم
الذي بقي الجزاء الأوفى على غطرسته السابقة وتحديه
لسُلطان الموحدين، ودعوته إِيَّاهُ إلى الحرب باستشارة
وُحمق ورُعونة، وكان المنصور من أعظم الملوك
وأرفعهم خِلالاً، فلم يشأ أن يزيد في إذلال خصمه،
وأجاب إلى ما يطلب من هدنة، وتم عقدها في

أواخر عام ٥٩٢هـ/١١٩٦م، وفي بعض المصادر العربية (نفح الطيب للمقرّي) أنّ المنصور لما ضيق الحصار على طليطلة خرجت إليه والدّة ألفونسو الثامن وبناته ونساؤه، وبكى بين يديه، وسألته إبقاء البلد عليهن، فرّق لهنّ ومنّ عليهن به، ووهب لهنّ الجليل من المال، وردّهنّ مكرّمات عزيزات، وعفا بعد القدرة، وهكذا كانت أخلاق المنصور وخلاله، وأرحمته، ولو أراد الانتقام من الملك القشتاليّ الذي تحدّاه بفضاظة ورعونة لرقض أن يهادنه بعد أن تهيأ له السبيل بعد هزيمته الساحقة إلى القضاء عليه قضاء مُبرماً!

ومن الانصاف للحقيقة أيضاً أن نُشير إلى أنّ المنصور كان يُرْحَبُ بقصد المُهادنة مع قشتالة، لأسباب أخرى كانت تضطره إلى مُغادرة اسبانيا

والعودة إلى المغرب، أهمها ما بلغه من ثورة علي بن
أسحق الميورقي ومحاولتيه الاستيلاء على بجاية، ونشر
الفِئْتَةِ في مملكة الموحّدين، وعليُّ بنُ اسحق هو سليلُ
القائد المرابطي الشهير ابنِ غانية، ولهذا وافق المنصورُ
على مهادنة الاسبان لمدة خمس سنوات، وعبر البحر
إلى المغرب، في أواخر عام ٥٩٣ هـ أو في أوائل
٥٩٤ هـ، عائداً إلى عاصمته مُراكش، حيثُ تمكّن
من القضاء على الفِئْتَةِ، وإعادة الأمن والاستقرار إلى
مملكته، دون مشقة كبيرة.

ويُعدُّ بطلُ معركة الأرك من أعظم ملوك
المغرب مَجْداً وأكثرهم بناء وعُمراناً، وقد أتاح له
الأموالُ الجليلةُ التي غنمها بعد المعركة أن يشيد آثاراً
خالدةً، لا تزال إلى اليوم ماثلة للعيان، تشهد لبانيها
المجاهد العظيم بالمجد وخلود الذكر على الأيام.

خاتمة : نظرة تحليلية

بعد عرضنا لوقائع معركة الأرك الحاسمة، وما انطوت عليه من مشاهد البطولات والأجساد، وبعد تقصينا للأضداء التي خلفتها المعركة لدى كل من الفريقين المتحاربين فيها، نود أن نلقي نظرة تحليلية عاجلة على عوامل النصر الاسلامي في هذه المعركة الفاصلة، لنستخلص منها درساً نافعاً لحاضر أمتنا العربية والاسلامية، ونزداد إيماناً بأن طريق كل أمة إلى الحياة والنصر والكرامة يبدأ من منطلق واحد: هو وحدتها الوطنية التي تجمع شملها وتحمىها من التفرق والتبدد، وتوجه صفوفها نحو هدف موحد،

فَتَسِيرُ جَمِيعُ طَاقَاتِ الْأُمَّةِ مُتَشَابِكَةً نَحْوَهُ، كَالْبَنِيَانِ
الْمَرْصُوعِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً..

إن أولَ عاملٍ من عواملِ نصرِ المسلمين المغاربة
في معركةِ الأركِ تَقَدُّمُهُ الْوَحْدَةُ الْوُطْنِيَّةُ الْوَثِيقَةُ الَّتِي
جَمَعَتْ أَقْطَارَ الشَّامِ الْأَفْرِيقِيَّ فِي ظِلِّ دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ
الْعَظِيمَةِ، إِذْ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ قَدْ تَمَكَّنَتْ مِنْ تَوْحِيدِ
تِلْكَ الْأَقْطَارِ (مِنْ مَدِينَةِ سَلَا عَلَى الْأَطْلَسِيِّ إِلَى مَدِينَةِ
بَرْقَةِ فِي لِيْبِيَا الْيَوْمِ) وَمَجْمُوعُهَا يُؤَلِّفُ الْيَوْمَ مَا يُدْعَى
بِالْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ الْكَبِيرِ، وَبِتَوْحِيدِ تِلْكَ الْأَقْطَارِ كُلِّهَا
تَحْتَ رَايَةِ الْمُوَحِّدِينَ تَمَكَّنَتْ دَوْلَتُهُمْ مِنْ تَجْنِيدِ تِلْكَ
الْجُيُوشِ الْجَرَارَةِ الَّتِي اسْتَطَاعَتْ بِهَا سَحْقَ الْمَمَالِكِ
النَّصْرَانِيَّةِ فِي إسبانيا وهزيمتها هزيمةً مَاحِقَةً، وَقَدْ
شَهِدْنَا فِي مَعْرَكَةِ الْأَرْكِ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ مِلْيُونِ
مُحَارِبٍ يَعْبُرُونَ الْبَحْرَ، تَلْبِيَةً لِنْدَاءِ الْمَنْصُورِ،

لِلْمُشَارَكَةِ فِي الْجِهَادِ، كَمَا رَأَيْنَا انْضِمَامَ الْجَيْشِ
الْأَنْدَلُسِيِّ إِلَى الْجِيُوشِ الْمَغْرِبِيَةِ الزَّاحِفَةِ، فِي وَحْدَةٍ
جَامِعَةٍ، وَرَاءَ خَلِيفَةِ الْمُوَحِّدِينَ الْمَنْصُورِ، لِيَخُوضَ
مَعْرَكَةَ النُّصْرَةِ، وَقَدْ تَجَلَّتِ الْوَحْدَةُ بِأَوْثَقِ رَوَابِطِهَا بَيْنَ
جَمْعِ الْمُسْلِمِينَ الْحَاشِدَةِ، مِنْ عَرَبٍ وَبَرْبَرٍ، وَمَغَارِبَةٍ
وَأَنْدَلُسِيِّينَ، وَجُنُودِ نِظَامِيِّينَ وَمُجَاهِدِينَ مَتَطَوِّعِينَ مِنْ
شَتَّى الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْبَرْبَرِيَّةِ، وَقَاتَلَ الْجَمِيعُ تَحْتَ
إِمْرَةِ الْمَنْصُورِ وَكَأَنَّهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ، بِقُلُوبٍ عَامِرَةٍ
بِالْإِيمَانِ، وَنَفُوسٍ ظَامِئَةٍ إِلَى الشَّهَادَةِ، إِلَى أَنْ تَمَكَّنُوا
مِنْ هَزِيمَةِ الْقَشْتَالِيِّينَ وَدَحْرِهِمْ، بَعْدَ ثَلَاثِ مُحَاوَلَاتٍ
هُجُومِيَّةٍ كَاسِحَةٍ، رَمَوْا خِلَالَهَا بِأَشْجَعِ فَرَسَانِهِمْ
وَأَعْظَمِ مُحَارِبِيهِمْ، لِيَصْدَمُوا بِهِمْ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ صَدْمَةً
قَاضِيَةً مِنْذُ السَّاعَاتِ الْأُولَى لِلْمَعْرَكَةِ، بِغِيَّةٍ تَحْقِيقِ
نُصْرَةِ خَاطِئٍ، يَحْطَمُونَ بِهِ مَعْنَوِيَّاتِ الْجَيْشِ

الاسلامي ، ولكنَّ المسلمين ثبتوا لِلهُجُومِ تَلَوُ الهُجُومِ ،
ولم يُبالوا بكثرة مَنْ اسْتُشْهِدَ منهم خِلَالَ ذلك ،
وتَحَمَّلَتْ قَبِيلَةُ هَنْتَاتَةَ أَغْنَتْ الهُجُومَ عَلَيْهَا ، وَهِيَ
تُحِيطُ بِزَعِيمِهَا الْوَزِيرِ أَبِي يَحْيَى ، الْقَائِدِ الْعَامِّ لِلجَيْشِ
الْأَوَّلِ ، وَالرَّايَاتُ الْخَضِرُ تُرْفَرُ فَوْقَهُ ، وَقَدْ حَسَبَهُ
الْقَشْتَالِيُونَ سُلْطَانَ الْمُوحِدِينَ ، فَاسْتَمَاتُوا فِي الْوُصُولِ
إِلَيْهِ ، وَدَفَعَ الْوَزِيرُ الْأَمِينُ الْمَخْلَصُ حَيَاتَهُ ثَمَنًا
لِتَضَحِيَّتِهِ الْكَبِيرَةِ ، وَكَانَ مِنْ أَكْبَرِ أَبْطَالِ مَعْرَكَةِ
الْأَرْكِ وَشَهِدَائِهَا الْأَبْرَارُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَقَطَ إِلَى جَانِبِهِ
عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ أَبْطَالِ قَبِيلَتِهِ هَنْتَاتَةَ ، بَعْدَ أَنْ صَمَدُوا
لِلدَّفَاعِ عَنْهُ بِاسْتِبْسَالٍ مَشْهُودٍ .

وَالْعَامِلُ الثَّانِي فِي نَصْرِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعْرَكَةِ
الْأَرْكِ نَجْدُهُ فِي عُنَايَةِ الْمَنْصُورِ بِتَقْدِيمِ الْحَارِبِينَ
الْأَنْدَلُسِيِّينَ ، وَالْإِهْتِمَامَ بِهِمْ ، وَالْحَرَصَ عَلَى إِشْرَاكِهِمْ

في جميع مراحِلِ المعركة، والاستِفادة من خبراتهم
الكبيرة في حروبهم المتوالية للنصارى الاسبان، وقد
صارحهم المنصورُ بأنه حريصٌ على استشارتهم
والانتفاع بتجارهم وتقديم رأيهم على آراء غيرهم ممن
لم تكن لهم تجاربٌ حربيَّةٌ مع نصارى الاسبان، في
التخطيط للمعركة وعملياتها، وقد سُرَّ الأندلسيون
لاهتمام سلطانِ الموحِّدين بهم، وازدادوا فرحاً حين
عقَدَ المنصورُ للقائد الذي اختاروه منهم على جيشهم،
لقيادتهم، فأخلصوا في المعركة كُلَّ إخلاصٍ، وكان
لقائدهم أبي عبدالله بن صناديد دورٌ كبيرٌ في تحقيقِ
النَّصر، إذ قدَّمَ للمنصورِ عُصاةَ خبرته الحربية مع
الاسبان، وأشار عليه بالخطَّة الكفيلة بدحرهم،
وقاتل مع أبطال الجيش الأندلسيَّ أَصْدَقَ قتالٍ، بعد
استشهاد القائد العامِّ الوزير أبي يحيى الهنتاتي، حتى
تمكن من صدِّ الهجوم القشتاليِّ، وسحق الصفوف

المتقدّمة من فرسان قشتالة، بعد أن ظنوا أنهم قتلوا
السلطان المنصور، وأنهم قد أصبحوا قاب قوسين من
النّصر على المسلمين! لقد رأى الأندلسيون اهتمام
المنصور بهم، فبدلوا في حومة القتال كلّ جهدهم،
وهذا أمر لم يكن المرابطون ينتبهون إليه، حين كانوا
يُهمِلُونَ تقديم الأندلسيين في الحرب مع النصارى
الاسبان، فيخسرون بذلك مشاركتهم الكبيرة في
المعارك، كما كان إهمالهم يُثيرُ تذمّر الأندلسيين في
أوّل الأمر إلى أن أصبحوا يغضبون ويثورون
ويشاركون في الفتن، للخلاص من المرابطين
والخروج عن حكمهم وسلطانهم في آخر الأمر.

والعامل الثالث في النصر الاسلامي في معركة
الأرك التخطيط لها بمهارة وذكاء وموهبة حربية
فدّة، وقد رأينا خطة القتال يرسمها المنصور بإرشاد

القائد الأندلسي ابن صناديد، وهي تقوم على فهم
واع لطريقة النصارى الأسبان في القتال، لمواجهة
بطريقة مضادة تشل خطتهم وتفسد تدبيرهم، ولما
كان الأسبان يعتمدون إلى اختيار كتيبة ضخمة من
أشجع فرسانهم، يلقون بها في بداية المعركة،
ليصدموا بها عدوهم صدمة قاضية، تكبده خسائر
كبيرة، تنهار أمامها معنوياته، ويبلغ معها رأسه من
النصر كل مبلغ، ويتهاوى في غمرة اليأس لالتماس
منافذ النجاة بالفرار، فقد خطط المنصور للمعركة
بالاتفاق مع القائد ابن صناديد خطة مضادة تكفل
للمسلمين الغلبة، وهي تقوم على توزيع القوات
الاسلامية في شطرين:

الجيش الأول الذي يتصدى لهجوم الكتيبة
الاسبانية المختارة حتى يستنزف قواها ويكسر

شوكتها، والجيش الثاني الاحتياطي الذي يدخل
المعركة بعد ذلك، ليكتمل سحق الجيش القشتالي،
بعد أن أضاع زهرة فرسانه في محاولاته الهجومية
الأولى! وقد بُنيت الخطة على خدعة حربية
صغيرة، لضمان نجاحها، فأعطيت لقائد الجيش
الأول جميع المظاهر السلطانية، فرفرت فوق رأسه
الأعلام الكبيرة، وحف بموكبه الحرس السلطاني،
وقرعت له الطبول، ونُفخ في الأبواق، لينخدع
القشتاليون به، ويحسبوه السلطان المنصور، فيلقوا
بثقل فرسانهم في المعركة ليقتاله، في حين يكون
المنصور على رأس الجيش الثاني الاحتياطي، بانتظار
اللحظة المناسبة للخروج من وراء التلال، والدخول
في المعركة بعد استنزاف طاقات الجيش القشتالي
وإعياء المحاربين من فرسانه.. خدعة صغيرة كما
رأينا، ولكنها جاءت بالنصر الكبير، فحين ظنَّ

القشتاليون أنهم باتوا قريبين من النَّصْرِ، برزت لهم
كتائبُ جيشٍ جديدٍ، وأُطلَّ عليهم السلطانُ المنصورُ
بالجموع الهائلة من فرسانِ الموحِّدين، وانقضوا على
البقية الباقية من الجيشِ القشتاليِّ، فتراجعتْ
صفوفُهُ وتقهقرتْ، واجتاح الموحِّدون مُعسكرَ
الاسبان، وراحوا يطاردون القُلُوبَ المنهزمة، وقد ولَّتِ
الأدبارَ، وحلَّتْ بالقشتاليين هزيمةٌ لم يروا مثيلاً
لها منذ أكثر من قرن!

وقد كان على المنصور أن يكفلَ للخطَّةِ التي
وضعها السريَّة، فلا تنكشف لِعُيُونِ الجواسيسِ
الذين يعملون لحسابِ عدوِّه ألفونسو الثامن، لأنَّ
نجاحَ الخطَّةِ مرهونٌ بِسَرِّيَّتِهَا، وهذا يجعلنا نقدرُ مدى
الجهودِ التي بُذِلَتْ، للتمويه على الناظرين، ليحسبوا
الوزيرَ القائدَ العامَّ أبا يحيى الهنتاتي هو السلطانُ

المنصور، خليفة الموحّدين، وقد نجح التّمويةُ نجاحاً كاملاً، فلم يكتشف الاسباب حقيقة الأمر إلا بعد فوات الأوان كما رأينا.

ورابعُ عواملِ النَّصرِ الاسلاميِّ في معركة الأرك شخصية المنصور العبقريّة في إنسانيتها، الغنية بمواهبها القيادية والادارية والسياسية، فالمنصور الذي تمكّن بعزمته وإقدامه وحُسن سياسته وتدبيره من إقامة الأمن والاستقرار في دولته الكبيرة، واكتساب محبة شعبه والتفاف الناس حول حُكمه وقيادته، هو القائد الأعلى لتلك الجيوش الضخمة التي سارت تحت لوائه إلى النصر، وقد قاد جموعها الزاخرة قيادةً مثلى، دلّت على عظيم موهبته في فنّ الحرب والقيادة، والتخطيط والتنفيذ، وأبرز ملامح موهبته في قيادته العسكرية حرصه وهو القائد الأعلى لجيوش

الموحدين على الاستفادة من جميع الآراء التي يُبدونها
قُوَادُهُ وأركانُ حربِهِ، وتشجيعُهُ إياهم على تقديم
عُصَاةٍ تجارهم إليه، لِيَسْتَعِينَ بها في التخطيط
للمعركة وتسيير عملياتها، وهذا ما رأيناه عند دَعْوَتِهِ
القَّادَةَ أشياخَ الجندِ لِيُفَاوضَهُم في مجلسِهِ الحربيِّ
قَبْلَ اتِّخَاذِ كُلِّ قَرَارٍ للمعركة، وهو ما تَبَيَّنَاهُ أيضاً
عند استشارة المنصور للقادة الأندلسيين وانتفاعِهِ
بآراء ابن صناديد في التخطيط للقتال، وقد أسهم
ذلك كله في صُنْعِ النَّصْرِ وتحقيقِ الغلبة على
القشتاليين، ولو كان المنصور مُسْتَبِداً برأيه، مُسْتَخِفّاً
بآراء قادتيه ونصائحهم لكان من الصَّعْبِ عليه أن
يقودَ معركة الأرك إلى النتيجة المشرقةِ المجيدة التي
انتهت إليها، ولكنَّ شخصية المنصور العظيمة، في
تواضعها الانسانيِّ، لا يمكنُ لصاحبها أن يكونَ
مغروراً بنفسِهِ، مُسْتَبِداً برأيه، وقد وقفنا عند بعض

المشاهد المؤثرة من إنسانية المنصور وتواضعه، عندما طاف ليلة المعركة على جموع المسلمين، يُناشدهم أن يغفروا له ما قد يكون صدر منه نحوهم، وأن يُسامحوه، لتصفو نفسه في لقاء العدو، حريصاً على لقاء ربه رضي النفس قرير العين؛ وقد كان لتواضع المنصور أثره الكبير في نفوس المحاربين، إذ ألهب جماهيرهم حماسة للقتال وعزماً على الاستماتة لتحقيق النصر، وقد نشطت نفوسهم، وخلصت نياتهم، وسنحت أرواحهم، والحق أن المنصور كان موفّقاً كلّ التوفيق في التماس الوسائل التي تعين على رفع معنويات المحاربين تحت لوائه، لاستغلال الطاقات الكامنة في النفوس المؤمنة، ورفعها إلى البذل والتضحية والاستشهاد، ومن أمثلة تلك الوسائل في معركة الأرك أمره بنشر رسالة التحدي التي بعث بها ملك قشتالة ألفونسو الثامن، ليدعوه إلى

الحرب، فأذيعت بين عامة المسلمين، وقُرئت على جيوشِ الموحّدين، وجموع المتطوعة والمجاهدين، ليلهب التحدي حماسَهُم ويستثير عزمَهم للجهاد، ومن تلك الوسائل أيضاً إذاعةُ الحلم الذي رآه المنصور ليلة المعركة، حين رأى ملكاً يهبطُ من السماء ليُبشّره بالنصرِ القريب، فكان لإذاعة هذا الحلم السعيد بين كتائب الجيوش والمقاتلين أثرٌ في شحذِ العزائم وإعداد النفوس لخوض المعركة، والصمود في مناجزة العدو حتى يتحقق النصر الموعود!

إنَّ شخصية المنصورِ العظيمة من أهمِّ عواملِ النصرِ الاسلامي في معركة الأرك على النصارى الاسبان، ففي شخصية هذا السلطانِ المغربيِّ البطلِ ضُروبٌ من الكمالِ تجعلُ المؤرخين يُفيضون في الثناء

عليه ، وَيَعُدُّونَ أَيَّامَهُ — كما قدّمنا — زينةً للدهر،
وشرفاً للإسلام وأهليه، كما قال بعضهم فيه .

* * *

وآخر ما نقفُ عنده من عواملِ النصرِ الاسلامي
تمزُّقُ الممالكِ النصرانيةِ الاسبانية، وتفرُّقُها وتعاديها،
وتخوُّفُ بعضها من بعضٍ، فقد تحملتُ مملكةُ قشتالة
ضربةَ الموحِّدين القاضيةَ وحدها، في حين أنَّ الملوكَ
النصارى الآخرين كانوا يحاولون مُحالفةَ الموحِّدين،
أو كانوا يتظاهرون بمُدِّ يدِ العونِ إلى القشتاليين،
وينتظرون بلهفةٍ أنْ تُسْفِرَ المعركةُ عن هزيمةٍ قشتالة،
ليستريحوا من مطاميحِها في الاستيلاء على بعضِ
أراضيهم، وضمَّها إلى مملكةِ قشتالة، وقد كانت هذه
المملكةُ التي تُعدُّ كُبْرَى الممالكِ النصرانيةِ يومذاك
تسعى لتوحيدها جميعاً في دولةٍ كبيرةٍ قادرةٍ على

تصفية الوجود العربي والاسلامي في اسبانيا، وكان
الملوك النصارى يكيّدون لمملكة قشتالة، سراً
وعلانية، ليحتفظوا بعروشهم وامتيازاتهم، وقد
استفاد الموحدون من الوضع المتفجر بين تلك الممالك
النصرانية الشقيقة، ولم يتأخر المنصور عن مُحالفة
بعضها على بعض، ليزيد تفرّقها شتاتاً، وبحول دون
تلاقها واتفاقها ووحديتها، وكانت معركة الأرك
ضربة قاضية قصّمت ظهر كبرى تلك الممالك،
وكسرت شوكتها، ووقفت اسبانيا النصرانية بعد
هزيمة الأرك على عتبة الهلاك، فقد كانت جيوش
الموحدين تتأهب للقضاء عليها، وكان المنصور
بذكائه وقوته ومضاء عزمته وقدرته على انتهاز
الفرص، واستغلال منازعات الملوك النصارى، قادراً
على إخضاع اسبانيا في جيل واحد، وتعميم الفتح
الاسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية كلّها!

ولنختتم هذه النظرة التحليلية بما يؤكد هذه الحقيقة الكبيرة من أقوال المؤرخ الألماني أشباخ:

«على أثر هزيمة الأرك تخرج مركز النصارى في شبه الجزيرة، واشتدَّ الخطرُ عليهم بصورة لم يعرفوها منذ بعيد، ولم يكفهم أنَّ أعداء الصليب ضربوا معسكرهم أمام عاصمة إسبانيا النصرانية؛ ولكنَّ الخصومات والحروب الطاحنة كانت تمزق الملوك النصارى، وتحول دون كلِّ اتحاد لمواجهة الخطر المشترك، ولم يُنقذ إسبانيا النصرانية يومئذ من الهلاك سوى إسراع زعيم الموحدين المنصور بالعودة إلى المغرب، ثم موته الفجائي، الذي قضى على خطط الموحدين الكبرى في الفتح».

«وكان من المَحَقِّق أنَّ شبه الجزيرة ستتنصوي كلها تحت سلطان الموحدين، لو أنَّ محمداً، خليفة

أبيه المنصور، مضى في الحرب بمثل ما كان عليه أبوه من الذكاء والقوة والمقدرة على انتهاز الفرص، ذلك أن إسبانيا النصرانية لم تكن يومئذ سوى مزيج مضطرب من العناصر المتخاصمة. ولو أن أميراً فطناً من أمراء الموحدين، سار على مبادئ السياسة التي اتبعت فيما بعد، في استغلال منازعات الملوك النصراني، والتوسل بمحالف الضعفاء منهم إلى التدخل في الشؤون الداخلية، لاستطاع المسلمون أن يخضعوا إسبانيا كلها في جيل واحد. ومن المرجح أن المنصور — وهو الذي استر هذه السياسة — كان بوسعه أن يحقق هذه الغاية، لو طال أمده حكمه، وقد اتخذ بالفعل في هذه السبيل خطوات ناجحة! » .

فليرحم الله المنصور العظيم بطل معركة

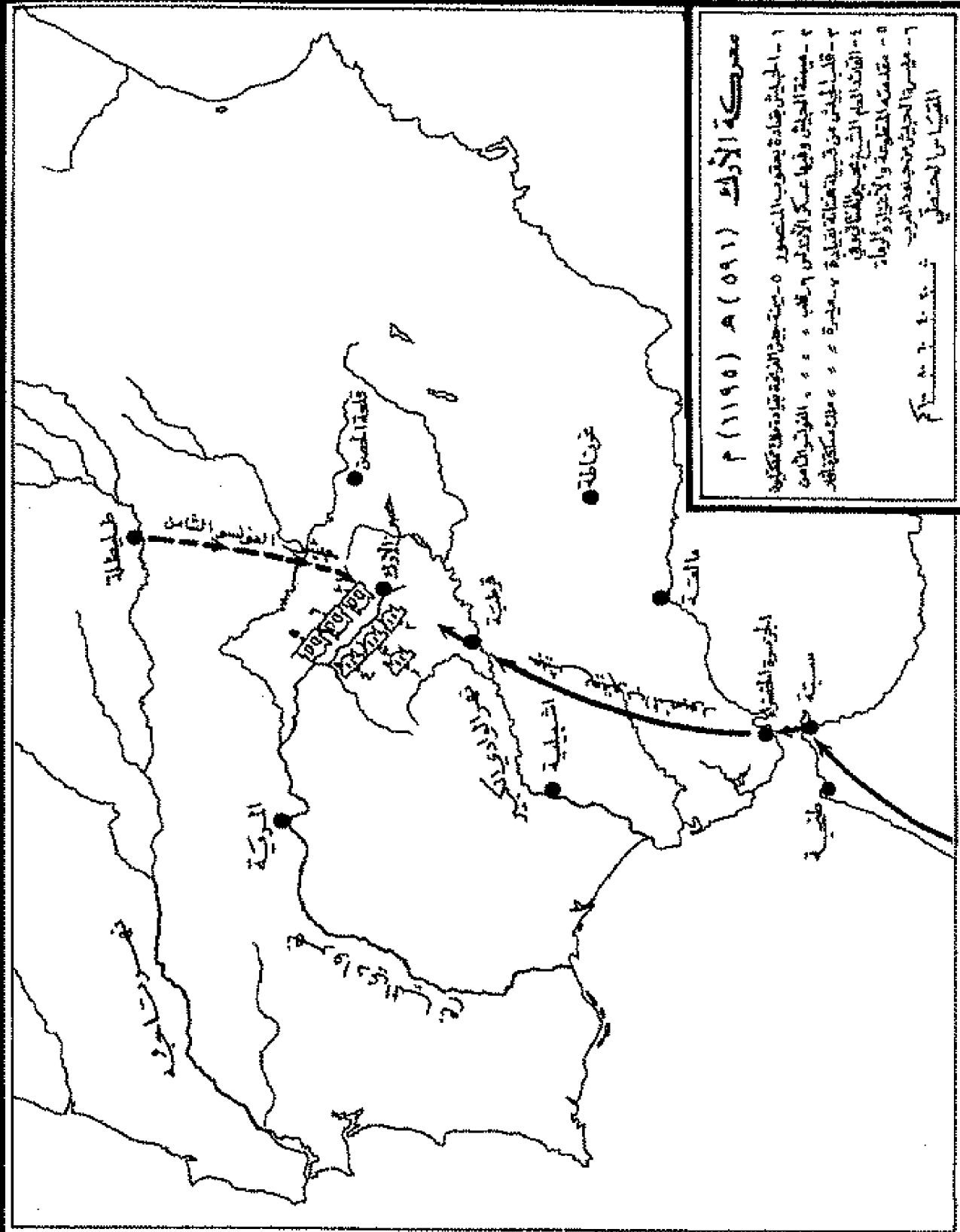
الأرك... وهذه الصفحات — على تواضعها — تحية
إكبار وإجلال لأمجاده الخالدة، التي شهدت
الأندلس الإسلامية، يوم كان أجدادنا يروون
أرضها الطيبة بعرقهم ودموعهم ودمائهم..
ويفجّرون في أرجائها ينابيع النور والحق والخير
والحضارة...

المحتوى

٣	تمهيد
٦	الممالك النصرانية في شمالي اسبانيا
١١	المرابطون ينقذون الأندلس في معركة الزلاقة
١٨	الموحدون يستولون على الأندلس
٢٧	السلطان يعقوب المنصور: شخصيته وتكوينه
٣٤	ألفونسو الثامن ملك قشتالة يتحدى المنصور
٤١	المنصور يدعو إلى الجهاد ويتأهب له
٤٦	قشتالة تحشد قوات هائلة للمعركة الفاصلة
٥٢	المنصور يُخطط لخوض معركة الأرك
٥٩	وقائع المعركة وسير عملياتها الحربية
٧٩	أصداء المعركة الحاسمة وآثارها
٨٨	خاتمة: نظرة تحليلية
١٠٧	المحتوى

معركة الأرك (٥٩١) هـ (١١٩٥ م)

- ١- الجيش ضادة يعقوب المنصور
- ٢- جيش الزنكية بقيادة صلاح الدين
- ٣- جيش الحلب وفيها عسكر الأندلس
- ٤- جيش الحلب من قريظة بقيادة نصير
- ٥- القائد العام الشيخ محمد بن أبي بكر
- ٦- مقدمة المشقة والانتصار والمآة
- ٧- جيش الحلب من جهة الغرب
- ٨- جيش الحلب من جهة الشرق



معارك وبطولات حربية اسلامية وعربية



الحدث الحمراء	وادي لحي	المنصورة	شبي فار
وادي المخازن	بدر الخيري	عمورية	الذلاقة
فتح قسطنطينية	عين جالوت	ميسلون	الارك
الجبل الاخضر	اليمامة	نهارند	احمد
بلاط الشهداء	القادسية	اليرموك	حطين

To: www.al-mostafa.com